

سلسلة أعمال غسان كنفاني
٣

غسان كنفاني

رجال في الشمس



غسان كنفاني

١٩٣٦

* ولد غسان كنفاني في عكا عام ١٩٣٦، وعاش في يافا واضطر الى النزوح عنها كما نزح آلاف الفلسطينيين بعد نكبة ١٩٤٨ تحت ضغط القمع الصهيوني، حيث اقام مع ذويه لفترة قصيرة في جنوبي لبنان، ثم انتقلت العائلة الى دمشق.

* عمل كنفاني منذ شبابه المبكر في النضال الوطني، وبدأ حياته العملية معلماً للتربية الفنية في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) في دمشق، ثم انتقل الى الكويت عام ١٩٥٦ حيث عمل مدرسا للرسم والرياضة في مدارسها الرسمية. وكان في هذه الاثناء يعمل في الصحافة، كما بدأ انتاجه الادبي في الفترة نفسها.

* انتقل الى بيروت عام ١٩٦٠، حيث عمل محرراً ادبياً لجريدة «الحرية» الاسبوعية، ثم اصبح عام ١٩٦٣ رئيساً لتحرير جريدة «المحرر»، كما عمل في «الانوار» و«الحوادث» حتى عام ١٩٦٩ حين اسس صحيفة «الهدف» الاسبوعية وبقي رئيساً لتحريرها حتى استشهاده في ٨ تموز (يوليو) ١٩٧٢.

* يمثل كنفاني نموذجاً خاصاً للكاتب السياسي والروائي والقصص والناقد، فكان مبدعاً في كتاباته كما كان مبدعاً في حياته ونضاله واستشهاده. وقد نال عام ١٩٦٦ جائزة «اصدقاء الكتاب في لبنان» لافضل رواية عن روايته «ما تبقى لكم»، كما نال جائزة منظمة

* رجال في الشمس، رواية لغسان كنفاني.

* الطبعة الثانية، ١٩٨٠ (الطبعة الاولى ١٩٦٣)

* جميع الحقوق محفوظة.

* تصميم واخراج وتنفيذ «دار المثلث، ش.م.م»، بيروت.

تمهيد

عندما صدرت رواية «رجال في الشمس» في بيروت عام ١٩٦٣، كانت العمل الروائي الفلسطيني الاول الذي يكتب التشرد والموت والحيرة وي طرحها كسؤال تاريخي. «رجال في الشمس» هي رواية قصيرة تستلهم تجربة الموت الفلسطيني وتحيله الى سؤال يتردد صدها في الصحراء العربية.

تروي «رجال في الشمس» حكاية ثلاثة فلسطينيين من اجيال مختلفة، يلتقون حول ضرورة ايجاد حل فردي لمشكلة الانسان الفلسطيني المعيشية عبر الهرب الى الكويت، حيث النفط والثروة. ابو قيس: الرجل العجوز الذي يحلم ببناء غرفة في مكان ما خارج المخيم، اسعد: الشاب الذي يحلم بدنانير الكويت وب حياة جديدة، ومروان: الصغير الذي يحاول ان يتغلب على مأساته المعيشية، فشقيقه في الكويت تركهم دون معيل لانه تزوج، ووالده ترك امه ليتزوج بامرأة تملك بيتا، عليه اذن ان يعيل العائلة فيقرر الوصول الى الكويت.

تتمحور الرواية حول هدف الوصول هذا، يقرر الثلاثة الهرب في خزان شاحنة يقودها ابو الخيزران، وابو الخيزران فقد رجولته في حرب ١٩٤٨، وهو يعمل سائقا على طريق الكويت، وفي نقطة الحدود يموت الفلسطينيون الثلاثة لان السائق يتأخر، يموتون دون ان يقرعوا جدار الخزان او يرفعوا صوتهم بالصراخ.

«رجال في الشمس»، هي الصراخ الشرعي المفقود، انها الصوت الفلسطيني الذي ضاع طويلا في خيام التشرد، والذي يحتنق داخل عربة يقودها خصي هزم مرة اولى وسيقود الجميع الى الموت. وهي كرواية لا

الصحافيين العالمية (I.O.J.) عام ١٩٧٤، ونال جائزة «اللوتس» التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وافريقيا عام ١٩٧٥.

مؤلفاته:

* موت سرير رقم ١٢ (قصص) ١٩٦١، * ارض البرتقال الحزين (قصص) ١٩٦٢، * رجال في الشمس (رواية) ١٩٦٣، * الباب (مسرحية) ١٩٦٤، * عالم ليس لنا (قصص) ١٩٦٥، * ادب المقاومة في فلسطين المحتلة (دراسة) ١٩٦٦، * ما تبقى لكم (رواية) ١٩٦٦، * القبعة والنبي (مسرحية) ١٩٦٧، * في الادب الصهيوني (دراسة) ١٩٦٧، * عن الرجال والبنادق (قصص) ١٩٦٨، * الادب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (دراسة) ١٩٦٨، * ام سعد (رواية) ١٩٦٩، * عائد الى حيفا (رواية) ١٩٦٩، * العاشق (رواية غير كاملة) بدأ بكتابتها عام ١٩٦٦، * الاعمى والاطرش (رواية غير كاملة)، * برفوق نيسان (رواية غير كاملة) ٧١ - ٧٢، * جسر الى الأبد (مسرحية)، ١٩٦٥ * المقاومة ومعضلاتها (دراسة) ١٩٧٠ * ثورة ٣٦ - ٣٩ في فلسطين (دراسة)، ١٩٧٢.

بالاضافة الى مجموعة اخرى من الروايات والدراسات السياسية والفكرية والتاريخية والنقدية التي لم تنشر في كتب. منها: * الشيء الآخر، او «من قتل ليل الحايك؟» (رواية) نشرت على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٦ * اللوتس الاحمر الميت (زواية)، ١٩٦١ * ثم اشرفت آسيا، (كتاب عن رحلة الى الصين) نشر على حلقات اسبوعية عام ١٩٦٥ * ترجمة «صيف ودخان» لتينيسي وليامس ١٩٦٤.

تدعي التعبير عن الواقع الفلسطيني المعاش في علاقاته المتشابكة، انها اطار رمزي لعلاقات متعددة تتمحور حول الموت الفلسطيني، وحول ضرورة الخرج منه باتجاه اكتشاف الفعل التاريخي او البحث عن هذا الفعل انطلاقا من طرح السؤال البديهي: «لماذا لم يدقوا جدران الخزان».

ربما كانت هذه الرواية القصيرة، هي احد اكثر الاعمال الادبية العربية تعبيرا عن ارادة الفعل الفلسطيني قبل ان يتكامل هذا الفعل في اطار سياسي، وهي بهذا المعنى، احد المعالم الادبية البارزة التي قدمت صورة عن التحول الفلسطيني والعربي في مرحلة ما قبل حزيران ١٩٦٧.

كتب كنفاني هذه الرواية في اوائل عام ١٩٦٢، حين اضطر للاختباء في بيروت، لأنه لم يكن يملك اوراقا رسمية، في فترة اشتد فيها القمع والملاحقة على اثر محاولة انقلابية فاشلة جرت في لبنان في حينه. وقد ترجمت هذه الرواية الى الانكليزية والفرنسية والهولندية والالمانية والهنگارية والنرويجية والسويدية والتشيكية. كما حولت الى فيلم سينمائي اخبره توفيق صالح بعنوان «المخدوعون»، وقد فاز هذا الفيلم بعدد من الجوائز: جائزة مهرجان قرطاج في تونس، جائزة مهرجان الافلام الكاثوليكية في باريس وجائزة افلام حقوق الانسان في ستراسبورغ. كما قام فريق مسرحي فلسطيني بتحويل الرواية الى نص مسرحي عرض في مدينة الناصرة، غير ان سلطات الاحتلال الاسرائيلية اوقفت العرض. كما قام الفريق المسرحي التابع لاذاعة كل من السويد والدانمارك بمسرحة الرواية.

الناشر

To Anni H. Kanafani

G.

Boet
عبد السلام

Like

روايات المساء
سوريين

أبوقيس

مختصر
القصص
والله

اراح ابوقيس صدره فوق التراب الندي، فبدأت الأرض تحفق من تحته: ضربات قلب متعب تطوف في ذرات الرمل مرتجة ثم تعبر الى خلایاه... في كل مرة يرمي بصدره فوق التراب يحس ذلك الوجيب كأنما قلب الأرض ما زال، منذ ان استلقى هناك اول مرة، يشق طريقاً قاسياً الى النور قادماً من اعماق الجحيم، حين قال ذلك مرة لجاره الذي كان يشاطره الحقل، هناك، في الأرض التي تركها منذ عشر سنوات، اجابه ساخراً:

«هذا صوت قلبك انت تسمعه حين تلتصق صدرك بالأرض»، أي هراء خبيث! والرائحة إذن؟ تلك التي إذا تشققها ماجت في جبينه ثم انهالت مهومة في عروقه؟. كلما تنفس رائحة الأرض وهو مستلق فوقها خيل إليه أنه يتنسم شعر زوجته حين تخرج من الحمام وقد اغتسلت بالماء البارد.. الرائحة إياها، رائحة امرأة اغتسلت بالماء البارد وفرشت شعرها فوق وجهه وهو لم يزل رطيباً.. الخفقان ذاته: كأنك تحمل بين كفيك الحانيتين عصفوراً صغيراً..

الأرض الندية - فكر - هي لا شك بقايا من مطر امس.. كلا، امس لم تمطر! لا يمكن أن تمطر السماء الآن إلا قيظاً وغباراً! أنسيت أين أنت؟ أنسيت؟

دور جسده واستلقى على ظهره حاضناً رأسه بكفيه وأخذ ينطلع إلى

السماء: كانت بيضاء متوهجة، وكان ثمة طائر أسود يملق عالياً وحيداً على غير هدى، ليس يدري لماذا امتلاً، فجأة، بشعور أسن من الغربية، وحسب لوهلة أنه على وشك أن يبكي. . . كلا، لم تمطر أمس، نحن في آب الآن. . . أنسيت؟ كل تلك الطريق المناسبة في الخلاء كأنها الأبد الأسود. . . أنسيتها؟ ما زال الطائر يحوم وحيداً مثل نقطة سوداء في ذلك الوهج المترامي فوقه. . . نحن في آب! إذن لماذا هذه الرطوبة في الأرض؟ إنه الشط! ألسنت تراه يترامى على مدّ البصر إلى جانبك؟

- «وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات، يشكلان نهراً واحداً إسمه شط العرب يمتد من قبل البصرة بقليل إلى. . .»

الأستاذ سليم، العجوز النحيل الأشيب، قال ذلك عشر مرات بصوته الرفيع لطفل صغير كان يقف إلى جانب اللوح الأسود، وكان هو ماراً حينذاك حذاء المدرسة في قريته. . . فارتقى حجراً وأخذ ينلصص من الشباك: كان الأستاذ سليم واقفاً أمام التلميذ الصغير وكان يصبح بأعلى صوته وهو يهز عصاه الرفيعة:

- «. . . وحين يلتقي النهران الكبيران: دجلة والفرات. . .»

وكان الصغير يرتجف هلعاً فيها سرت ضحكات بقية الأطفال في الصف. . . مدّ يده ونقر طفلاً على رأسه فرفع الطفل نظره إليه وهو ينلصص من الشباك:

- «. . . ماذا حدث؟»

ضحك الطفل وأجاب هامساً:

- «تيس!»

عاد، فنزل عن الحجر وأكمل طريقه وصوت الأستاذ سليم ما زال يلاحقه وهو يكرر:

- «وحين يلتقي النهران الكبيران. . .»

في تلك الليلة شاهد الأستاذ سليم جالساً في ديوانية المختار يقرقر بنرجيلته: كان قد أرسل لقرينتهم في يافا كي يعلم الصبية، وكان قد أمضى شطراً طويلاً من حياته في التعليم حتى صارت كلمة أستاذ جزءاً لا يتجزأ من إسمه، وفي الديوانية سأله أحدهم، تلك الليلة:

- «. . . وسوف تؤم الناس يوم الجمعة. . . أليس كذلك؟»

وأجاب الأستاذ سليم ببساطة:

- «كلا، إنني أستاذ ولست إماماً. . .»

قال له المختار:

- «وما الفرق؟ لقد كان أستاذنا إماماً. . .»

- «كان أستاذ كتاب، أنا أستاذ مدرسة. . .»

وعاد المختار يلح:

- «وما الفرق؟»

لم يجب الأستاذ سليم بل دَوَّرَ بصره من وراء نظارتيه فوق الوجوه كأنه يستغيث بواحد من الجالسين، إلا أن الجميع كانوا مشوشين حول هذا الموضوع مثل المختار. . .

بعد فترة صمت طويلة تنحج الأستاذ سليم وقال بصوت هادي:

- «طيب، أنا لا أعرف كيف أصلي...»

- «لا تعرف؟»

زأر الجميع، فأكد الأستاذ سليم مجدداً:

- «لا أعرف!»

تبادل الجلوس نظرات الإستغراب ثم ثبتوا أبصارهم في وجه المختار الذي شعر بأن عليه أن يقول شيئاً، فاندفع دون أن يفكر:

- «... وماذا تعرف إذن؟»

وكان الأستاذ سليم كان يتوقع مثل هذا الدوّال، إذ أنه أجاب بسرعة وهو ينهض:

- «أشياء كثيرة... إنني أجيد اللّاق الرصاص مثلاً...»

وصل إلى الباب فالتفت، كان وجهه النحيل يرتجف:

- «إذا هاجموكم أيقظوني، قد أكون ذا نفع...»

ها هو إذن الشط الذي تحدث عنه الأستاذ سليم قبل عشر سنوات!
ها هو ذا يرتقي على بعد آلاف من الأميال والأيام عن قريته وعن مدرسة
الأستاذ سليم... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم! يا رحمة الله عليك!
لا شك أنك ذا حظوة عند الله حين جعلك ثموت قبل ليلة واحدة من
سقوط القرية المسيكية في أيدي اليهود... ليلة واحدة فقط... يا الله!
أتوجد ثمة نعمة إلهية أكبر من هذه؟... صحيح أن الرجال كانوا في

شغل عن دفنك وعن إكرام موتك... ولكنك على أي حال بقيت
هناك... بقيت هناك! وفرت على نفسك الذل والمسكنة وأنقذت
شيخوختك من العار... يا رحمة الله عليك يا أستاذ سليم... ترى لو
عشت، لو أغرقك الفقر كما أغرقني... أكنت تفعل ما أفعل الآن؟
أكنت تقبل أن تحمل سنيك كلها على كتفيك وتهرب عبر الصحراء إلى
الكويت كي تحمد لقمة خبز؟

نهض، واستند إلى الأرض بكوعيه وعاد ينظر إلى النهر الكبير كأنه لم
يره قبل ذلك. إذن هذا هو شط العرب: «نهر كبير تسير فيه البواخر
محملة بالتمر والقش كأنه شارع في وسط البلد تسير فيه السيارات...»
هكذا صاح ابنه، قيس، بسرعة حين سأله تلك الليلة:

- «ما هو شط العرب؟»

كان يقصد أن يمتحنه، إلا أن قيس صاح الجواب بسرعة، وأردف
قائلاً:

- «... لقد رأيتك تطل من شباك الصف اليوم...»

إلقت إلى زوجه فضحكت، أحس بشيء من الخجل، وقال بيظه:

- «انني أعرف ذلك من قبل...»

- «كلا، لم تكن تعرفه... عرفته اليوم وأنت تطل من الشباك...»

- «طيب! وماذا يعني أن أعرف ذلك أو أن لا أعرفه، هل ستقوم

القيامه؟»

رمقته زوجته من طرف عينيها ثم قالت:

- «إذهب والعب يا قيس في الغرفة الأخرى...»

وحين صفق الباب خلفه قالت لزوجها:

- «لا تحكي أمامه بهذا الشكل، الولد مبسوط لأنه يعرف ذلك، لماذا

تخيب ^{الولد} أبي؟»

قام واقترب منها ثم وضع كفه على بطنها وهمس:

- «متى؟»

- «بعد سبعة أشهر»

- «أوف!»

- «نريد بنتاً هذه المرة...»

- «كلا! نريد صبياً! صبياً!»

ولكنها أنجبت بنتاً سماها «حسنا»، ماتت بعد شهرين من ولادتها
وقال الطبيب مسمتراً: «لقد كانت نحيلة للغاية!»

كان ذلك بعد شهر من تركه قريته، في بيت عتيق يقع في قرية أخرى
بعيدة عن خط القتال:

- «يا أبا قيس، أحس بأنني سألد!»

- «طيب، طيب، إهدأني»

وقال في ذات نفسه:

«بودي لو تلد المرأة بعد مئة شهر من الحمل! أهذا وقت ولادة؟»

- «يا إلهي!»

- «ماذا؟»

- «سألد»

- «أأنادي شخصاً؟»

- «أم عمر»

- «أين أجدتها الآن؟»

- «ناولني هذه الوسادة...»

- «أين أجد أم عمر؟»

- «يا إلهي... إرفعني قليلاً، دعني أتكىء على الحائط...»

- «لا تتحركي كثيراً، دعيني أنادي أم عمر...»

- «أسرع... أسرع... يا رب الكون!»

هرول إلى الخارج، وحين صفق وراءه الباب سمع صوت الوليد
معاد وألصق أذنه فوق خشب الباب...

صوت الشط يهدر، والبحارة يتصايحون، والسماء تنوهج والطنائر
الأسود ما زال يحوم على غير هدى.

قام ونفض التراب عن ملابسه ووقف يمدق إلى النهر...

أحسن، أكثر من أي وقت مضى، بأنه غريب وصغير، مرر كفه فوق ذقنه الخشنة ونفض عن رأسه كل الأفكار التي تجمعت كجيشوش زاحمة من النمل.

وراء هذا الشط، ورائه فقط، توجد كل الأشياء التي حرمها.

هناك توجد الكويت.. الشيء الذي لم يعيش في ذهنه إلا مثل الحلم والتصور يوجد هناك.. لا بد أنها شيء موجود، من حجر وتراب وماء وسماء، وليست مثلها تهوم في رأسه المكدود.. لا بد أن ثمة أزقة وشوارع ورجالاً ونساء وصغاراً يركضون بين الأشجار.. لا.. لا.. لا توجد أشجار هناك.. سعد، صديقه الذي هاجر إلى هناك واشتغل سواقاً وعاد بأكياس من النقود قال إنه لا توجد هناك أية شجرة.. الأشجار موجودة في رأسك يا أبا قيس.. في رأسك العجوز التعب يا أبا قيس.. عشر أشجار ذات جذوع معقدة كانت تساقط زيتوناً وخيراً كل ربيع.. ليس ثمة أشجار في الكويت، هكذا قال سعد.. ويجب أن تصدق سعداً لأنه يعرف أكثر منك رغم أنه أصغر منك.. كلهم يعرفون أكثر منك.. كلهم.

في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئاً سوى أن تنتظر.. لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبينك وشبابك وقريتك كلها.. في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرفهم وأنت مفع ككلب عجوز في بيت حقيب.. ماذا تراك كنت تنتظر؟ أن تنقب الثروة سقف بيتك.. بيتك؟ إنه ليس بيتك.. رجل كريم قال لك: «سكن هنا! هذا كل شيء، وبعد عام قال لك أعطني نصف للفرقة، فرفعت أكياساً مرفعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد..

وبقيت مفعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلها يهز الحليب لبصير زبداً..
- وإذا وصلت إلى الشط بوسمك أن تصل إلى الكويت بسهولة، البصرة مليئة بالأدلاء الذين يتولون تهريك إلى هناك عبر الصحراء.. لماذا لا تذهب؟

سمعت زوجته كلام سعد فنقلت بصرها بين وجهيهما وأخذت تهدد طفلها من جديد.

- انها مغامرة غير مأمونة العواقب؟

- غير مأمونة العواقب؟ ها! ها! أبو قيس يقول، غير مأمونة العواقب.. ها ها!

ثم نظر إليها وقال:

- «أسمعت ما يقول زوجك؟ غير مأمونة العواقب! كأن الحياة شرية لينا! لماذا لا يفعل مثلنا؟ هل هو أحسن؟»
لم ترفع بصرها إليه، وكان هو يرجو أن لا تفعل..

- «أتعجبك هذه الحياة هنا؟ لقد مرت عشر سنوات وأنت تعيش كالشحاذ.. حرام! إنك قيس، متى سيعود للمدرسة؟ وغداً سوف يكبر الآخر.. كيف ستنظر إليه وأنت لم..»
- «طيب! كفى!»

- «لا! لم يكف! حرام! أنت مسؤول الآن عن عائلة كبيرة، لماذا لا تذهب إلى هناك؟ ما رأيك أنت؟»

زوجته ما زالت صامتة وفكر هو: «غداً سيكون هو الآخر...»
ولكنه قال:

- «الطريق طويلة، وأنا رجل عجوز ليس بوسعي أن أسير كما سرتم
أنتم... قد أموت...»

لم يتكلم أحد في الغرفة، زوجته ما زالت تهدد طفلها. وكف سعد
عن الإخاح ولكن الصوت الغليظ انفجر في رأسه هو:

- «تموت؟ هيه! من قال أن ذلك ليس أفضل من حياتك الآن؟ منذ
عشر سنوات وأنت تأمل أن تعود إلى شجرات الزيتون العشر التي
امتلكتها مرة في قرينك... قرينك! هيه!»

عاد فنظر إلى زوجته:

- «ماذا ترين يا أم قيس؟»

حدقت، إليه وهمست:

«كما ترى أنت...»

«سيكون بوسعنا أن نعلم قيس...»

- «نعم.»

- «وقد نشتر عرق زيتون أو إثنين...»

- «طبعاً!»

- «وربما نبني غرفة في مكان ما...»

- «أجل.»

- «إذا وصلت... إذا وصلت...»

كف، ونظر إليها... لقد عرف أنها سوف تبكي: سترنجف شففتها
السفلى قليلاً ثم ستساب دمعة واحدة تكبر رويداً رويداً ثم تنزل فوق
خدها المغضن الأسمر... حاول أن يقول شيئاً، ولكنه لم يستطع، كانت
غصة دامعة تمزق حلقه... غصة ذاق مثلها تماماً حين وصل إلى البصرة
وذهب إلى دكان الرجل السمين الذي يعمل في تهريب الناس من
البصرة إلى الكويت، وقف أمامه حاملاً على كتفيه كل الذل وكل الرجاء
الذين يستطيع رجل عجوز أن يحملها... وكان الصمت مطبقاً مطناً
حين كرر الرجل السمين صاحب المكتب:

- «إنها رحلة صعبة، أقول لك، ستكلفك خمسة عشر ديناراً.»

- «وهل تضمن أننا سنصل سالمين؟»

- «طبعاً سنصل سالمين، ولكن ستعذب قليلاً، أنت تعرف، بحر في
آب الآن، الحر شديد والصحراء مكان بلا ظل... ولكنك ستصل...»
كانت الغصة ما تزال في حلقه، ولكنه أحس أنه إذا ما أجل ذلك
الذي سيقوله فلن يكون بوسعه أن يلفظه مرة أخرى:

- «لقد سافرت آلافاً من الأميال كي أصل إليك، لقد أرسلني سعد،
أتذكره؟ ولكنني لا أملك إلا خمسة عشر ديناراً، ما رأيك أن تأخذ منها
عشرة وتترك الباقي لي؟»

قاطعه الرجل:

- «إننا لا نلعب... ألم يقل لك صديقك أن السعر محدود هنا؟ إننا

وبفسلها بعرقه طوال أيام وأيام، كلهم يقولون ذلك: ستجد نفسك على الطريق!.. قال له أبو العبد الذي هربه من الاردن إلى العراق:

- «ما عليك إلا أن تدور حول الإنشفور، لا بأس أن تضرب قليلاً إلى الداخل، أنت ما زلت فتى وبوسعك أن تتحمل قليلاً من القبط... ثم عد، وستجدني بانتظارك على الطريق...»

- «ولكن هذا لم يكن ضمن الشروط... لقد قلت لي، ونحن في عمان أنك ستأخذني إلى بغداد ودفعت لك عشرين ديناراً كاملاً... لم نقل لي أنني سأدور حول الإنشفور...»

وضرب أبو العبد جناح سيارته المغبر فعلمت أصابعه الخمسة وبان من تحتها لون السيارة الأحمر الفاقع... كانت السيارة الضخمة واقفة إلى جانب البيت قرب جبل عمان حين تفاوض معه، وهو يذكر تماماً كل الشروط التي قيلت:

«إنها مهمة صعبة، وسوف يأخذونني إلى السجن لو أمسكوك معي، ورغم ذلك فسوف أقدم لك خدمة كبرى لأنني كنت أعرف والدك، رحمه الله... بل إننا قاتلنا سوية في الرملة منذ عشر سنوات...»

صمت أبو العبد قليلاً... كان قميصه الأزرق ينضح بالعرق وأعطاه وجهه الحاد شعوراً بأنه أمام واحد من أولئك الرجال الذين يعتقدون أن اجتراف معجزة ما هو واجب من واجبات رب العائلة:

- «سأخذ منك عشرين ديناراً... وسوف تجد نفسك في بغداد...»

- «عشرون ديناراً؟»

- «نعم! وعليك أيضاً أن تساعدني طوال الطريق... سنبداً بعد غد علي أن أشحن سيارة صغيرة لرجل ثري في بغداد كان قد أمضى شطر من الصيف في رام الله ثم أراد أن يعود إلى بغداد بالطائرة...»

- «ولكن... عشرين ديناراً؟»

نظر إليه أبو العبد بإلحاح، ثم انفجر:

- «انني أنقذ حياتك بعشرين ديناراً... أنحسب أنك ستمضي عمرك

مغتنياً هنا؟ غداً يلقون القبض عليك...»

- «ولكن من أين... من أين أحضر لك عشرين ديناراً؟»

- «إستدن... إستدن، أي صديق بوسعه أن يعطيك عشرين ديناراً

إذا عرف بأنك ستسافر إلى الكويت...»

- «عشرون ديناراً؟»

- «عشرون... عشرون...»

- «إلى بغداد؟»

- مباشرة!

ولكنه كذب عليه، إستغل براءته وجهته، خدعه، أنزله من السيارة، بعد رحلة يوم قاتظ، وقال له ان عليه أن يدور حول الإنشفور كي يتلافى الوقوع في أيدي رجال الحدود، ثم يلتقيه على الطريق!

ولكنني لا اعرف هذه المنطقة... اتفهم أنت معنى أن أسير كل هذه

المسافة حول الإنشفور، في عز الحر؟

شكر كل من قرأ هذه الرواية
378
٢٥

ضرب أبو العبد جناح سيارته المغيرة مرة أخرى، كانا واقفين منفردين
قبل ميل من الإتشفور وصاح:

- ماذا نعتقد؟ ان إسمك مسجل في كل نقاط الحدود، إذا رأوك معي
الآن، لا جواز سفر ولا سمة مرور. . . ومتأمر على الدولة ماذا نعتقد أنه
سيحدث؟ كفاك دلالاً. . . أنك قوي كالثور بوسمك أن تحرك
سائقك. . . سألاقيك وراء الإتشفور على الطريق.

كلهم يتحدثون عن الطرق. . . يقولون: نجد نفسك على الطريق!
وهم لا يعرفون من الطريق إلا لونها الأسود وأرصفتها! وها هو الرجل
السمين، المهرب البصراوي يكرر القصة نفسها.

- الا تسمع؟ أنني رجل مشغول جداً. قلت لك: خمسة عشر ديناراً
وسأوصلك إلى الكويت، طبعاً عليك أن تمشي قليلاً ولكنك فتى في غاية
القوة، لن يضيرك هذا.

- ولكن لماذا لا تصفي إلي؟ قلت لك أنني سأعطيك المبلغ إذا ما
وصلنا إلى الكويت.

- متصل! متصل!
- كيف؟

- اني أقسم لك بشرفي أنك ستصل إلى الكويت!
- تقسم بشرفك؟

- أقسم لك بشرفي اني سألتفيك وراء الاتشفور! ما عليك إلا أن
تدور حول تلك المنطقة الملعونة وستجدني بانتظارك!

لقد دار دورة كبيرة حول الإتشفور، كانت الشمس تصب لهاً فوق
رأسه، وأحس فيها كأن يرتقي الوهاد الصفر، أنه وحيد في كل هذا
العالم. . . جرجر ساقيه فوق الرمل كما لو أنه يمشي على رمل الشاطئ.
بعد أن سحب زورقاً كبيراً إمتص صلابة ساقيه. . . اجتاز بقاعاً صلبة
من صخور بنية مثل الشظايا ثم صعد كثباناً واطئة ذات قمم مسطحة
من تراب أصفر ناعم كالطحين. . . تراهم لو حملوني إلى معتقل الجفر
الصحراوي. . . هل سيكون الأمر أرحم مما هو الآن؟ عيث. . . الصحراء
موجودة في كل مكان، كان أبو العبد قد أعطاه كوفية لف بها رأسه،
ولكنها لم تكن ذات جدوى في رد اللهب بل خيل إليه أنها آخذة، هي
الأخرى، في الإحتراق. . . كان الأفق مجموعة من الخطوط المستقيمة
البرنقالية، ولكنه كان قد عقد عزمه على المسير بجد. . . وحتى حينما
إنقلب التراب إلى صفائح لامعة من ورق أصفر، لم يتباطأ. . . وفجأة
بدأت الأوراق الصفر تتطاير فأنحنى يلتمها:

- شكراً، شكراً. . . إن هذه المروحة الملعونة تطير الأوراق من أمامي،
ولكن دونها ليس بوسعي ان أتففس. . . ها! ماذا قررت؟

- هل أنت متأكد من أن الدليل الذي سترسله معنا لن يهرب؟
- كيف يهرب أيها الغبي؟ ستكونون أكثر من عشرة أشخاص. . . لن
يكون بوسعه أن يهرب منكم. . .
- وإلى أين سيوصلنا؟

- حتى طريق الجهرة، وراء المطلاع، وهناك ستكونون داخل
الكويت. . .

- هل سنمشي كثيراً؟

. ست أو سبع ساعات فقط . . .

بعد أربع ساعات وصل إلى الطريق، كان قد خلف الإتشفور وراءه، وكانت الشمس قد سقطت وراء التلال البنية إلا أن رأسه كان ما يزال يلتهب وخبيل إليه أن جبينه يتصبب دماً . . لقد اقتعد حجراً وألقى بصره بعيداً إلى رأس الطريق الأسود المستقيم، كان رأسه مشوشاً تخفق فيه آلاف الأصوات المتشابكة، وبداله أن بروز سيارة كبيرة حمراء في رأس تلك الطريق أمر خيالي وسخيف . . وقف، حدق إلى الطريق من جديد، لم يكن بوسعهم أن يرى بوضوح بعد، تراه الغسق أم العرق؟ كان رأسه ما يزال يطن مثل الخلية، وصاح بجلء رثتيه:

- أبو العبد . . يلعن أبوك . . يلعن أصلك . .

- ماذا قلت؟

- أنا؟ لا شيء، لا شيء . . متى ستبدأ الرحلة؟

- حال يصير عددكم عشرة . . أنت تعرف، ليس بوسعنا أن نرسل دليلاً مع كل واحد منكم، ولذلك فنحن ننتظر حتى يرتفع العدد إلى عشرة أشخاص ونرسل معهم دليلاً واحداً . . هل ستعطيني النقود الآن؟

شدّ على النقود في جيبه وفكّر: «سوف يكون بوسعي أن أرد لعمي المبلغ في أقل من شهر . . هناك في الكويت يستطيع المرء أن يجمع نقوداً في مثل لمح البصر . . .»

الحكماء يتوسلون خديراً

- لا تتفائل كثيراً، قبلك ذهب العشرات ثم عادوا دون أن يحضروا قرشاً . . . ورغم ذلك سأعطيك الخمسين ديناراً التي طلبتها، وعليك أن تعرف أنها جني عمر . . .

- إذن لماذا تعطيني النقود إذا كنت متأكداً من أنني لن أعيدها لك؟

- أنت تعرف لماذا . . أأست تعرف؟ انني أريدك أن تبدأ . . أن تبدأ ولو في الجحيم حتى يصير بوسعك أن تتزوج ندى . . انني لا أستطيع أن أتصور ابنتي المسكينة تنتظر أكثر هل تفهميني؟

أحس الإهانة تجرح حلقة ورغب في أن يرد الخمسين ديناراً لعمه يقذفها بوجهه بكل ما في ذراعه من عنف وفي صدره من حقد، يزوجه ندى! من الذي قال له إنه يريد أن يتزوج ندى؟ لمجرد أن أباه قرأ معه الفاتحة حين ولد هو وولدت هي في يوم واحد؟ إن عمه يعتبر ذلك قدراً، بل إنه رفض مئة خاطب قدموا ليتزوجوا ابنته، وقال لهم إنها مخطوبة! يا إله الشياطين! من الذي قال له أنه يريد أن يتزوجها؟ من قال له أنه يريد أن يتزوج أبداً؟ وها هو الآن يذكره مرة أخرى! يريد أن يشتريه لإبنته مثلما يشري كيس الروث للحقل، شد على النقود في جيبه وتحفز في مكانه . . ولكنه حين لمسها هناك، في جيبه، دافئة ناعمة، شعر بأنه يقبض على مفاتيح المستقبل كله، فلو أتاح الآن لحنقه أن يسيطر عليه ليرجع النقود إلى عمه، إذن لما تيسرت له قط فرصة الحصول على خمسين ديناراً بأي شكل من الأشكال . . هداً غضبه مطبقاً فمه بأحكام وشدّ أصابعه على النقود الملتفة في جيب بنطاله، ثم قال:

- لا، لا، سأسلمك النقود حالما تجهز الرحلة تماماً . . سوف أراك

مرة في كل يوم .. اني أنزل في فندق قريب ..

إبتسم الرجل السمين، ثم تناولت إبتسامته فانفجر ضاحكاً بصخب:

- من الخير لك أن لا تصيح وقتك يا بني .. كل المهريين يتفاضون نفس السعر، نحن متفقون فيما بيننا .. لا تعب نفسك .. وعلى أي حال: إحتفظ بنقودك حتى تجهز الرحلة، أنت حر .. ما إسم الفندق الذي تنزل فيه؟

- فندق الشط ..

- آه! فندق الجرذان!

نط جرد الحقل عبر الطريق فلمعت عيناه الصغيرتان في ضوء السيارة وقالت الفتاة الشقراء لزوجها المنهمك بالسياقة:

- إنه ثعلب! رأيته؟

قال الزوج الأجنبي ضاحكاً:

- أف منكن أيتها النساء! تجعلن من الجرذ ثعلباً!

كانا قد إلتقطاه بعد الغروب بقليل بعد أن لُوّح لهما وهما في سيارتهما الصغيرة، فلما أوقف الزوج السيارة، أطل هو من النافذة .. كان يرجف من فرط البرد، وكانت الزوجة خائفة منه .. إلا أنه جمّع في ذهنه ما تعلمه من اللغة الإنكليزية وقال:

- لقد أضطر صديقي أن يعود إلى الإشفور بالسيارة وتركني ..

قاطعته الرجل:

- لا تكذب .. أنت هارب من هناك، لا بأس، اصعد .. سأوصلك إلى بعقوبة.

كان المقعد الخلفي مريحاً وتناولته الفتاة بطانية إلتفح بها وكان لا يستطيع أن يعرف بالضبط، هل هو يرجف بسبب البرد الصحراوي، أم بسبب الخوف، أم بسبب التعب .. وقال الرجل:

- هل مشيت كثيراً؟

- لست أدري .. ربما أربع ساعات ..

- لقد تركك الدليل .. أليس كذلك؟ ان ذلك يحدث دائماً.

إلتفتت إليه الفتاة وسألت:

- لماذا تهربون من هناك؟

أجابها زوجها:

انها قصة طويلة .. قل لي .. هل تحيد قيادة السيارات؟

- نعم ..

- بوسعك أن تأخذ مكاني بعد أن تستريح قليلاً .. قد أستطيع أن أساعدك على عبور مركز الحدود العراقي .. سنصل هناك في الثانية بعد منتصف الليل، وسيكون المسؤولون نياماً ..

لم يكن يستطيع أن يركز رأسه على محور واحد، كان مشوشاً ولم يكن بوسعه أن يهتدي إلى أول طريق التساؤلات كي يبدأ، ولذلك حاول

- من أين أنت؟

- من فلسطين . . من الرملة .

- أوف . . ان الرملة بعيدة جداً . . قبل اسبوعين كنت في زيتا . .
أتعرف زيتا؟ لقد وقفت أمام الاسلاك الشائكة ، فاقترب مني طفل صغير
وقال بالانكليزية ان بيته يقع على بعد خطوات وراء الاسلاك . .

- هل أنت موظف؟

- موظف؟ ها! ان الشيطان نفسه تأي عليه براءته أن يكون موظفاً .
كلا يا صديقي . . أنا سائح . .

- «أنظر . . أنظر، انه ثعلب آخر . . ألم تر إلى عينيه كيف تتقدان؟»

- «يا عزيزي انه جرد . جرد . . لماذا تصرين على أنه ثعلب؟ هل
سمعت ما حدث أخيراً هناك، قرب زيتا؟»

- «كلا . . ماذا حدث؟»

- «الشيطان لا يعرف ماذا حدث! هل ستستقر في بغداد؟»

- «كلا . .»

- «أوف! إن هذه الصحراء مليئة بالجردان، تراها ماذا تقنات؟»

أجاب بهدوء:

- «جرداناً أصغر منها . .»

- «حقاً؟ إنه شيء مرعب! الجرد نفسه حيوان مرعب كره . .»

قال الرجل السمين صاحب المكتب:

- «الجرد حيوان كره . . كيف بوسعك أن تنام في ذلك الفندق؟»

- «إنه رخيص . .»

نفض الرجل السمين صاحب المكتب واقترب منه ثم وضع ذراعه
الثقيلة فوق كتفيه:

- «تبدو متعباً أيها الفتى . . ماذا حدث؟ هل أنت مريض؟»

- «أنا؟ كلا!»

- «إذا كنت مريضاً قل لي . . قد أستطيع أن أساعدك . . لي كثير من
الأصدقاء يعملون أطباء . . واطمئن، لن تدفع شيئاً . .»

- «بارك الله فيك، ولكنني تعب قليلاً . . هذا كل ما في الأمر . . هل
سيأخر إعداد الرحلة؟»

- «كلا، نحمد الله أنكم كثر . . خلال يومين ستجد نفسك على
الطريق . .»

أدار ظهره وانجه إلى الباب، ولكن قبل أن يجتازه سمع الرجل
السمين يقهقه من وراء كتفيه:

- « . . . لكن حاذر أن تأكلك الجردان قبل أن تسافر . .»

- قالوا أن سعر الواحد خمسة دنانير.

- خمسة دنانير؟ هاهاها! كان ذلك قبل أن تزف حواء إلى آدم.. يا بني، استدر، واخط ثلاث خطوات، وستجد نفسك في الطريق غير مطروداً

مَرَوَان

جمع شجاعته كلها وحشدها في لسانه، كل ما تبقى في جيبه لا يزيد عن السبعة دنانير، ولقد كان يحسب قبل هنيهة أنه غني.. أما الآن.. أترأه يستصغره؟

- سوف تأخذ مني خمسة دنانير وأنت مبسوط.. والأ..

- والأ ماذا؟

- والأ فضحتك في مخفر الشرطة!

قام الرجل السمين ودار حول مكتبه ثم وقف أمامه وهو يلهث ويتصبب عرقاً.. حلق فيه هنيهة قاسه فيها من رأسه حتى قدميه ثم رفع يده الثقيلة في الهواء..

- تريد أن تشكوني إلى الشرطة يا ابن ال...!

وهوت اليد الثقيلة فوق خده، فضاعت الكلمة في طنين شيطاني أخذ يدور بين أذنيه.. لم يستطع أن يحتفظ بتوازنه للحظة فخطا إلى الوراء خطوتين صغيرتين، ووصله صوت الرجل السمين مبجوحاً بالغضب:

- اذهب وقل للقواويد أنني ضربتك.. تشكوني للشرطة؟

تحفز في مكانه لبرهة وجيزة، ولكنها كانت كافية ليكتشف فيها عبث

خرج مروان من دكان الرجل السمين الذي يتولى تهريب الناس من البصرة إلى الكويت، فوجد نفسه في الشارع المسقوف المزدهم الذي تفوح منه رائحة التمر وسلال القش الكبيرة.. لم تكن لديه أية فكرة محددة عن وجهته الجديدة.. فهناك، داخل الدكان، تقطعت آخر خيوط الأمل التي شدت، لسنوات طويلة، كل شيء في داخله.. كانت الكلمات الأخيرة التي لفظها الرجل السمين حاسمة ونهائية، با خيّل إليه أنها كانت مصبوبة من رصاص:

- خمسة عشر ديناراً.. ألا نسمع؟

- ولكن..

- أرجوك! أرجوك! لا تبدأ بالنواح! كلكم تأتون إلى هنا ثم تبدأون بالنواح كالأرامل!.. يا أخي، يا روجي لا أحد يجبرك على الالتصاق هنا، لماذا لا تذهب وتسال غيري، البصرة مليئة بالمهربين!

طبعاً سيذهب ويسأل غيره، لقد قال له حسن - الذي اشتغل في الكويت أربع سنين - أن تهريب الفرد الواحد من البصرة إلى الكويت يكلف خمسة دنانير فقط لا غير، وأنه يجب أن يكون - حين يمثل أمام المهرب - أكبر من رجل وأكثر من شجاع وإلا ضحكك عليه وخدعه واستغل سنه الست عشرة وجعل منه العوبة.

أية محاولة يقوم بها لترميم كرامته، بل إنه أحس - حتى عظامه - بأنه قد
أخطأ خطأ لا يغتفر، فأخذ يمضغ ذله وعلامات الأصابع فوق خده
الأيسر تلتهب ..

- ماذا تراك تنتظر هنا؟

دار على عقبه، واجتاز الباب إلى الخارج فصفعت أنفه روائح التمر
وسلال القش الكبيرة .. تراه ماذا سيفعل الآن؟ لم يكن يريد أن يسأل
السؤال لنفسه قط .. ولكنه ليس يدري لماذا كان يحس بنوع من
الارتياح .. ترى ما السبب في ذلك؟ لقد أحب أن يشغل نفسه
بالتقصي عن السبب .. ثمة شعور يملأ جانباً من رأسه ويوحى له
بالارتياح والسعادة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفصله عن كل الأحداث
المؤسية التي إحتشدت في صدره خلال نصف الساعة الماضي .. وحين
إنتهت كل محاولاته إلى الفشل اتكأ على الحائط .. كانت جموع الناس
تعبر حوالبه دون أن تلتفت إليه، ربما يحدث هذا للمرة الأولى في حياته:
أن يكون منفرداً وغريباً في مثل هذا الحشد من البشر .. ولكنه كان يريد
أن يعرف سبب ذلك الشعور البعيد الذي يوحى له الاكتفاء والارتياح،
شعور يشابه ذلك الذي كان يراوده بعد أن ينتهي من مشاهدة فيلم
سينمائي فيحس بأن الحياة كبيرة وواسعة وأنه سرف يكون في المستقبل
واحداً من أولئك الذين يصرفون حياتهم، لحظة أثر لحظة وساعة أثر
ساعة بامتلاء وتنوع مشيرين .. ولكن ما السبب في كونه يحس الآن مثل
ذلك الشعور رغم أنه لم يشاهد منذ زمن بعيد فيلمًا من ذلك النوع،
ورغم أن خيوط الأمل التي نسجت في صدره أحلاماً كباراً قد تقطعت،
قبيل لحظات، داخل دكان الرجل السمين؟

لا فائدة .. يبدو أنه لن يستطيع اختراق الحجاب الكثيف من خيبة
الأمل الذي ارتفع دونه ودون ذلك الشعور الملتف على نفسه في مكان ما
من رأسه .. وقرر، فيها بعد، أن لا يرهق رأسه قط .. وأن يشغل
نفسه بالمسير .. ولكنه ما أن ترك الجدار وبدأ يمشي في الزحام حتى شعر
بيد تربت على كتفه ..

- لا تيأس إلى هذا الحد .. إلى أين ستذهب الآن؟

كان الرجل الطويل قد بدأ يسير إلى جانبه بألفة، وحين نظر إليه خيل
له أنه قد شاهده في مكان ما من قبل، ولكنه رغم ذلك، ابتعد عنه
خطوة وصب فوق وجهه عينيْن متسائلتين، فقال الرجل:

- إنه لص شهرير .. ما الذي قادك إليه؟

أجاب بعد تردد قصير:

- كلهم يأتون إليه ..

أقرب الرجل منه وشبك ذراعه بذراعه كأنه يعرفه منذ زمن بعيد:

- أتريد أن تسافر إلى الكويت؟

- كيف عرفت؟

- لقد كنت واقفاً إلى جانب باب تلك الدكان، وشهدتك تدخل ثم

شهدتك تخرج .. ما اسمك؟

- مروان .. وأنت؟

- إنهم ينادوني «أبو الخيزران» ..

لاول مرة منذ رآه لاحظ الآن أن منظره يوحي حقاً بالخيزران، فهو رجل طويل القامة جداً، نحيل جداً، ولكن عنقه وكفيه تعطي الشعور بالقوة والمتانة وكان يبدو لسبب ما، أنه بوسعه أن يقوس نفسه، فيضع رأسه بين قدميه دون أن يسبب ذلك أي إزعاج لعموده الفقري أو بقية عظامه .

- حسناً، ماذا تريد مني؟

تجاهل أبو الخيزران السؤال سؤال من عنده:

- لماذا تريد أن تسافر إلى الكويت؟

- أريد أن أشتغل . . أنت تعرف كيف تجري الأمور هناك . . سئد
شهور طويلة وأنا . .

صمت فجأة ووقف .

الآن، فقط، عرف منشأ ذلك الشعور بالارتياح والاكتفاء الذي لم يكن بوسعه، قبل دقائق، أن يكتشفه . . إنه يفتح أمام عينيه بكل اتساعه وصفائه، بل إنه هدم، بشكل رائع، كل سدود الكتابة التي حالت بينه وبين معرفته . . وها هو الآن يمتلكه من جديد بسطوة لا مثيل لها قط . . كان أول شيء فعله ذلك الصباح الباكر هو كتابة رسالة طويلة إلى أمه . . وإنه يشعر الآن بمزيد من الارتياح لأنه كتب تلك الرسالة قبل أن تحجب أماله كلها في دكان الرجل السمين فيضيع صفاء الفرح الذي صبه في تلك الرسالة . . لقد كان بديعاً أن يعيش بعض ساعة مع أمه .

نهض باكراً جداً ذلك الصباح . . كان الخادم قد رفع السرير إلى سطح الفندق لأن النوم داخل الغرفة في مثل ذلك القبط وتلك الرطوبة أمر مستحيل . . وحينها أشرقت الشمس فتح عينيه . . كان الجورائماً وهادئاً وكانت السماء ما زالت تبدو زرقاء تحوم فيها حمامات سود على علو منخفض ويسمع رفيف أجنحتها كلما اقتربت - في دورتها الواسعة - من سماء الفندق . . كان الصمت مطبقاً بكثافة، والجو يعبق برائحة رطوبة مبكرة صافية . . مد يده إلى حقيبته الصغيرة الموضوعة تحت السرير فأخرج دفترًا وقلماً ومضى يكتب رسالة إلى أمه وهو مستلق هناك .

كان ذلك أحسن ما فعله خلال شهور، لم يكن مجبراً على فعله، ولكنه كان يريد ذلك بملء رغبته وإرادته . . كان مزاجه رائقاً، وكانت الرسالة تشبه صفاء تلك السماء فوقه . . ليس يدري كيف أجاز لنفسه أن يصف أباه بأنه مجرد كلب منحط ولكنه لم يشأ أن يشطب ذلك بعد أن كتبه، لم يكن يريد أن يشطب أي كلمة في الرسالة كلها . . ليس لأن أمه تتشام من الكلمات المشطوبة فقط، بل لأنه كان لا يريد ذلك أيضاً، وببساطة .

ولكنه - على أي حال - لا يحقد على أبيه إلى ذلك الحد . . صحيح أن أباه قام بعمل كرهه، ولكن من منا لا يفعل ذلك بين الفينة والأخرى؟ إنه يستطيع أن يفهم بالضبط ظروف والده، وبوسعه أن يغفر له . . ولكن هل بوسع والده أن يغفر لنفسه تلك الجريمة؟

«ان يترك أربعة أطفال . أن يطلقك أنت بلا أي سبب، ثم يتزوج من تلك المرأة الشوهاء . . هذا أمر لن يغفره لنفسه حين يصحو، ذات

يوم، ويكتشف ما فعل.

انني لا أريد ان أكره أحداً، ليس بوسعي أن أفعل ذلك حتى لو اردت . . ولكن لماذا فعل ذلك، معك أنت ؟ أنا أعرف أنك لا تحبين لأحد منا أن يحكي عنه، أعرف . . ولكن لماذا تعتقدين أنه فعل ذلك؟

لقد مضى كل شيء الآن وراح ولا أمل لنا بأن نستعيده مرة أخرى . . ولكن لماذا فعل ذلك؟ دعينا نسأل، لماذا؟

أنا سوف أقول لك لماذا . . منذ ان انقطعت عنا اخبار اخي زكريا اختلف الوضع نهائياً . . كان زكريا يرسل لنا من الكويت، كل شهر حوالي مئتي روبية . . كان هذا المبلغ يحقق لأبي بعض الاستقرار الذي يحلم به . . ولكن حين انقطعت أخبار زكريا - نرجو أن يكون ذلك خيراً ماذا تعتقدين انه فكر؟

لقد قال لنفسه - بل قال لنا كلنا - ان الحياة أمر عجيب . . وان الرجل يريد أن يستقر في شيخوخته لا أن يجد نفسه مجبراً على إطعام نصف ذبينة من الأفواه المفتوحة . . ألم يقل ذلك؟ زكريا راح . . زكريا، ضاعت أخباره، من الذي سيطعم الأفواه؟ من الذي سيكمل تعليم مروان ويشتري ملابس مي ويحمل خبزاً لرياض وسلمى وحسن؟ من؟

إنه رجل معدم، أنت تعرفين ذلك . . لقد كان طموحه كله . . كل طموحه، هو أن يتحرك من بيت الطين الذي يشغله في المخيم منذ عشر سنوات ويسكن تحت سقف من اسمنت، كما كان يقول . . الآن، زكريا راح . . آماله كلها تهاوت . . أحلامه انهارت . . مطامحه ذابت . . فماذا تعتقدين أنه سيفعل؟

لقد عرض عليه صديقه القديم والد شفيقة أن يتزوجها . . قال له انها تمتلك بيتاً من ثلاث غرف في طرف البلد، دفعت ثمنه من تلك النقود التي جمعتها لها منظمة خيرية . . وأبو شفيقة يريد شيئاً واحداً: أن يلقي حمل ابنته - التي فقدت ساقها اليمنى أثناء قصف يافا - على كاهل زوج! إنه على عتبة قبره ويريد أن يهبطه مطمئناً على مصير ابنته التي رفضها الجميع بسبب تلك الساق المتورة من اعلى الفخذ . . لقد فكر والدي بالأمر: لو أجر غرفتين وسكن مع زوجته الكسحاء في الثالثة إذن لعاش ما تبقى له من الحياة مستقراً غير ملاحق بأيام شيء . . وأهم من ذلك . . تحت سقف من إسمنت . .

- أتريد أن تبقى واقفاً هنا إلى الأبد؟

نفض رأسه وسار . . كان «أبو الخيزران» ينظر إليه من طرف حديقته، وخيل إليه أنه على وشك أن يتنسم ساخراً.

- ما بالك تفكر بهذا الشكل؟ ان التفكير غير ملائم لك يا مروان، ما زلت صغير السن . . والحياة طويلة . .

وقف مرة أخرى وألقى برأسه إلى الوراء قليلاً:

- والآن . . ماذا تريد مني؟

واصل «أبو الخيزران» المسير فلاحق به من جديد:

- أستطيع أن أهربك إلى الكويت.

- كيف؟

- هذا شأني أنا. أنت تريد أن تذهب إلى الكويت أليس كذلك؟

هو ذا إنسان بوسعه أن يأخذك إلى هناك . . ماذا تريد غير ذلك؟

- كم ستأخذ مني؟

هذا ليس مهمًا في الواقع . .

- إنه المهم .

إبتسم أبو الخيزران إبتسامة واسعة فانشقت شفتاه عن صفيين من الأسنان الكبيرة الناصعة البياض ثم قال:

- سأخبرك الأمر بكل صراحة . . أنا رجل مضطر للذهاب إلى الكويت، قلت لنفسني: لا بأس من أن أرتزق فأحمل معي بعض من يريد أن يذهب إلى هناك . . كم بوسعك أن تدفع؟

- خمسة دنانير . .

- فقط؟

- لا أملك غيرها .

- حسناً ، سأقبلها . .

وضع أبو الخيزران يديه في جيبه ومضى يسير بخطوات واسعة حتى أوشك مروان أن يضيعه، فاضطر إلى اللحاق به مسرعاً، إلا أن أبا الخيزران وقف فجأة وهز أصبعه أمام فمه:

- . . ولكن! لا تقل ذلك لأي إنسان . . أعني إذا طلبت من رجل آخر عشرة دنانير فلا تقل له أنني أخذت منك خمسة فقط . .

- ولكن كيف تريدي أن أثق بك؟

فكر أبو الخيزران قليلاً ثم عاد فابتسم تلك الإبتسامة الواسعة وقال:

- معك حق! ستعطيني النقود في ساحة الصفاة في الكويت . . في

العاصمة . . في منتصف العاصمة، مبسوطاً

- موافقاً!

- ولكننا سنحتاج إلى عدد آخر من المسافرين . . وعليك ان

تساعدني، هذا شرط .

- انني أعرف واحداً ينزل معي في الفندق ويرغب في السفر .

- هذا رائع، أنا أعرف واحداً آخر . . إنه من بلدي في فلسطين أيام

زمان قابلته صدفة هنا . . ولكنني لم أسالك . . ماذا تريد أن تفعل في

الكويت . . هل تعرف أحداً؟

وقف مرة أخرى، إلا أن أبا الخيزران شده من ذراعه فعاد ينجب إلى

جانبه . .

- إن أخي يعمل هناك .

هز أبو الخيزران رأسه فيما كان يسير متعجلاً ثم رفع كتفيه فغاصت

عنته وبدا أقصر من ذي قبل . .

- وإذا كان أخوك يشتغل هناك . . فلماذا تريد أنت أن تشتغل؟

الذين في سنك ما زالوا في المدارس! . .

- لقد كنت في المدرسة قبل شهرين، ولكنني أريد أن أشتغل الآن كي

أعيل عائلتي . .

وقف أبو الخيزران ثم رفع كفيه من جيبه وثبتها على خصريه وأخذ
يحدق إليه ضاحكاً:

- ها! لقد فهمت الآن.. أخوك لم يعد يرسل لكم نقوداً، اليس
كذلك؟

هز مروان رأسه وحاول أن يسير، إلا أن أبا الخيزران شده من ذراعه
فأوقفه..

- لماذا؟ هل تزوج؟

حدق مروان إلى أبي الخيزران مشدوهاً ثم همس:

- كيف عرفت؟

- ها، الأمر لا يحتاج إلى ذكاء خارق، كلهم يكفون عن إرسال النقود
إلى عائلاتهم حين يتزوجون أو يعشقون..

احس مروان بخيبة أمل صغيرة تنمو في صدره، لا لأنه فوجيء، بل
لأنه اكتشف أن الأمر شائع ومعروف، لقد كان يحسب أنه يخفق صدره
على سر كبير لا يعرفه غيره: حجه عن أمه وأبيه طوال شهور وشهور..
وها هو الآن يبدو على لسان أبي الخيزران كأنه قاعدة معروفة وبديهية..

- ولكن.. لماذا يفعلون ذلك؟ لماذا يتنكرون ل..

صمت فجأة، كان أبو الخيزران قد بدأ يضحك:

- أنا مبسوط أنك ستذهب إلى الكويت لأنك ستتعلم هناك أشياء
عديدة.. أول شيء ستتعلمه هو أن: القرش يأتي أولاً، ثم الأخلاق.

حين تركه أبو الخيزران على أمل لقاء بعد الظهر كان قد فقد - من
جديد - كل تلك المشاعر الرائعة التي كانت تغسله، من الداخل، طوال
الصباح.. بل إنه استغرب كيف تكون تلك الرسالة التي كتبها لأمه قد
أعطته الشعور الرائق الذي جعل خيبة أمه تبدو أقل قيمة مما هي في
الواقع.. رسالة سخيفة كتبها تحت وطأة الشعور بالوحدة والأمل على
سطح فندق حقير مرمرى في طرف الكون.. ما هو الخارق في الأمر؟
أحسب أن أمه لا تعرف القصة كلها؟ ماذا كان يريد أن يقول؟ أكان
يريد أن يقنعها بأن هجران زوجها لها ولأولادها أمر رائع وطبيعي؟ إذن
لماذا كل تلك الثروة؟ إنه يحب والده حباً خارقاً لا يتزعزع.. ولكن هذا
لا يغير شيئاً من الحقيقة الرابعة.. الحقيقة التي تقول إن أباه قد
هرب.. هرب.. هرب.. تماماً كما فعل زكريا الذي تزوج وأرسل له
رسالة صغيرة قال له فيها إن دوره قد أتى، وأن عليه أن يترك تلك
المدرسة السخيفة التي لا تعلم شيئاً وأن يغوص في المقلدة مع من
غاص..

كل عمره كان على طرفي نقيض مع زكريا.. بل إنهما كانا - في الواقع
- بكرهان بعضهما.. زكريا لم يكن يستطيع أن يفهم قط لماذا يتوجب
عليه أن يصرف على العائلة طوال عشر سنوات بينما يروح مروان ويحيى
إلى المدرسة مثل الأطفال.. وكان هو يريد أن يصبح طبيباً.. كان يقول
لأمه إن زكريا لن يفهم قط معنى أن يتعلم الإنسان لأنه ترك المدرسة
حين ترك فلسطين وغاص، منذ ذاك، في المقلدة، كما يجب أن يقول.

وها هو الآن قد تزوج دون أن يقول ذلك لأحد غيره، كأنه كان يريد
أن يضعه أمام ضميره وجهاً لوجه.. ولكن ماذا ترك له ليختار؟ لا شيء

أن يترك المدرسة ويعمل، بغوص في القلاة من هنا وإلى الأبد!

لا بأس! لا بأس.. أيام قليلة ويصل إلى الكويت.. إذا ساعده
زكريا، فإن ذلك أفضل، إذا تجاهله فسوف يعرف كيف يهتدي إلى أول
الطريق كما اهتدى الكثيرون.. وسوف يرسل كل قرش يحصله إلى
أمه، سرب يفرقها ويغرق إخوته بالخبر حتى يجعل من كوخ الطين جنة
إلهية.. ويجعل أباه يأكل أصابعه ندماً!

ورغم ذلك، فإنه لا يكره أباه إلى هذا الحد، لسبب بسيط هو أن أباه
ما زال يجهم جميعاً.. لقد تأكد من ذلك تماماً حين ذهب إليه يودعه
قبل أن يسافر، لم يقل لأمه أنه سيذهب إلى بيت شفيقة وإلا لكانت
جنت.. قال له أبوه هناك:

- أنت تعرف يا مروان بأن لا يد لي في الأمر، هذا شيء مكتوب لنا
منذ بدء الخليقة.

قالت شفيقة:

- قلنا لامك أن تأتي وتسكن هنا لكنها لم تقبل.. ماذا تريدنا أن نفعل
أكثر من ذلك؟

كانت جالسة فوق بساط من جلد ماعز، وكان العكاز ملقى إلى
جانبها، وفكر هو: «تري أين ينتهي فخذها؟» كان وجهها جميلاً ولكنه
حاد الملامح مثل وجوه كل أولئك المرضى الذين لا يرجي لهم الشفاء،
وكانت شفتها السفلى مقوسة كأنها على وشك أن تبكي..
قال أبوه:

- خذ، هذه عشرة دنانير.. قد تنفعك.. واكتب لنا دائماً.

حين قام رفعت شفيقة ذراعها في الهواء ودعت له بالتوفيق، كان
صوتها فاجعاً وحين التفت إليها قبل أن يجتاز الباب بدأت تشفق
بالبكاء.. وقال له أبوه:

.. وفقك الله يا مروان يا سبع.

وحاول أن يضحك إلا أنه لم يستطع فأخذ يربت بكفه الكبيرة الخشنة
على ظهره بينما تناولت شفيقة عكازها واستوت واقفة بحركة سريعة،
كانت قد كفت عن البكاء.

صفق الباب ورائه وسار.. كان ما زال يسمع صوت عكاز شفيقة
يقرق البلاط برتابة، وعند المنعطف تلاشى الصوت.

- هذا شأني أنا ..

ضحك أسعد بسخرية ثم قال ببطء شاداً على كلماته بعنف:

- لا يا سيدي .. انه شأننا نحن .. يجب أن تحكي لنا كل التفاصيل، لا تريد متاعب منذ البدء.

قال أبو الخيزران بصوت حاسم:

- ساحكي لكم التفاصيل بعد أن نتفق، وليس قبل ذلك ..

قال أسعد:

- لا يمكن أن نتفق قبل أن نعرف التفاصيل، ما رأي الشباب؟

لم يجب أحد، فأكد أسعد من جديد:

- ما رأي العم أبو قيس؟

- الراي رأيكم ..

- ما رأيك يا مروان؟

- أنا معكم.

قال أسعد بعنف:

- اذن، دعونا نختصر الوقت .. يبدو لي أن العم أبو قيس غير خبير

بالامر، أما مروان فإنها تجربته الأولى .. أنا عتيق في هذه الصنعة، ما

رأيكم ان اتفاوض عنكم؟

رفع أبو قيس كفه في الهواء موافقاً، وهزّ مروان رأسه، فالتفت أسعد

الصفحة

إقتاد مروان زميله أسعد إلى مواعده مع أبي الخيزران، وصلا متأخرين قليلاً فوجدا أبا الخيزران بانتظارهما، جالساً مع أبي قيس فوق مقعد إسمنت كبير على رصيف الشارع الموازي للشط.

- لقد اجتمعت العصابة كلها الآن اليس كذلك؟

صاح أبو الخيزران ضاحكاً وهو يضرب كتف مروان بكفه ويمد الأخرى ليصافح أسعد.

- هذا هو صديقك إذن .. ما اسمه؟

أجاب مروان باقتضاب:

- أسعد.

- دعني إذن أعرفكما على صديقي العجوز .. «أبو قيس» .. وبهذا تكون العصابة قد اكتملت .. لا بأس أن تزداد واحداً .. ولكنها الآن كافية أيضاً.

قال أسعد:

- يبدو لي أنك فلسطيني .. أنت الذي سيتولى تهربنا؟

- نعم، أنا.

- كيف؟

إلى أبي الخيزران ..

- لقد رأيت: الشباب سلموني الأمر، فدعني أقول لك شيئاً: إننا من بلد واحد. نحن نريد أن نرتزق وأنت تريد أن ترتزق، لا بأس، ولكن يجب أن يكون الأمر في منتهى العدل. سوف تحمكي لنا بالتفصيل كل خطوة، وسوف تقول لنا بالضبط كم تريد، طبعاً سنعطيك النقود بعد أن نصل وليس قبل ذلك قط. (رسم مسودة)

قال أبو قيس:

- الأخ أسعد يحكي الحق يجب أن نكون على بينة من الأمر، وكما يقول المثل: ما يبدأ بالشرط ينتهي بالرضا.

رفع أبو الخيزران كفيه من جيبه ووضعها على خصره، ثم نقل بصره فوق الوجوه جميعاً ببطء وبيروود حتى قرَّ قراره فوق وجه أسعد:

- أولاً، كل واحد منكم سيدفع عشرة دنانير. موافقون؟

قال أبو قيس:

- أنا موافق.

قال أسعد:

- أرجوك. لقد سلمتني الأمر اذن دعني أحكي. عشرة دنانير مبلغ كبير، ان المهرب المحترف يأخذ خمسة عشر ديناراً. ثم ..

قاطعه أبو الخيزران:

- لقد اختلفنا إذن قبل أن نبدأ، هذا ما كنت أخشاه. عشرة دنانير

لا تنقص فلساً. الملام عليكم.

أدار ظهره وخطا خطوتين بطيئتين قبل أن يلحقه أبو قيس صائحاً:

- لماذا غضبت؟ الموضوع سؤال وجواب والإتفاق أخو الصبر.

- حسناً، نعطيك عشرة دنانير. ولكن كيف ستأخذنا؟

- ها! نحن الآن في شغل الجد. إسمع.

جلس أبو الخيزران على مقعد الإسمنت ووقف الثلاثة حوالبه ومضى يشرح مستعيناً بيديه الطويلتين:

- لديّ سيارة مرخصة لاجتياز الحدود. ها! يجب أن تنتهبوا: انها ليست سيارتي. أنا رجل فقير أكثر منكم جميعاً وكل علاقتي بتلك السيارة أنني سائقها! صاحب هذه السيارة رجل ثري معروف، ولذلك فانها لا تقف كثيراً على الحدود، ولا تتعرض للتفتيش، فصاحب السيارة معروف ومحترم، والسيارة نفسها معروفة ومحترمة وسائق السيارة، تبعاً لذلك، معروف ومحترم.

كان أبو الخيزران سائقاً بارعاً، فقد خدم في الجيش البريطاني في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ أكثر من خمس سنين، وحين ترك الجيش وانضم إلى فرق المجاهدين كان معروفاً بأنه أحسن سائق للسيارات الكبيرة يمكن أن يعثر عليه، ولذلك إستدعاه مجاهدو الطيرة ليقود مصفحة عتيقة كان رجال القرية قد استولوا عليها إثر هجوم يهودي. ورغم أنه لم يكن خبيراً في قيادة المصفحات إلا أنه لم ينجب آمال أولئك الذين وقفوا على جانبي الطريق يتفرجون عليه وهو يدخل من الباب

المصنع الصغير ويغيب الحِظَات، ثم يهدر المحرك بالضجيج وتمضي
المصفحة تدرج في الطريق الرملي الضيق. إلا أن المصفحة ما لبثت أن
تعطلت، ولم تجد كل المحاولات التي بذلها أبو الخيزران لإعادتها إلى
سيرتها السوية. . وإذا كانت خيبة أمل الرجال كبيرة، فإن خيبة أمله
كانت أكبر، ولكن أبا الخيزران - على أي حال - أضاف إلى تجاربه في
عالم المحركات تجربة أخرى، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول أن هذه
التجربة لم تنفعه حين انضم إلى سائقي سيارات الحاج رضا في الكويت؟

لقد استطاع ذات يوم أن يقود سيارة ماء جبارة أكثر من ست ساعات
في طريق ملحي موحل دون أن تغوص في الأرض وتتعطل مثلما حدث
لجميع سيارات القافلة. . كان الحاج رضا قد خرج مع عدد من رجاله
إلى الصحراء ليغيبوا عدة أيام في القنص. . إلا أن الربيع كان حادعاً،
وأثناء عودتهم كانت الطريق تبدو بيضاء صلدة، وهذا ما دفع سائقي
السيارات لاقتحامها دون وجل، وهناك بدأت السيارات، الكبيرة
والصغيرة، تغوص في الوحل واحدة أثر الأخرى. . إلا أن أبا
الخيزران، الذي كان يقود سيارته الجبارة خلف الجميع واصل السير
ببراعة ودون أن يتعطل ثانية واحدة. . وحين شارف سيارة الحج رضا
الرمادية الغارقة حتى ثلاثة أرباع عجلاتها الوراثة في الوحل، أوقف
سيارته وهبط ثم اقترب من الحج وقال له:

- ما رأي عمي الحج رضا أن يصعد إلى سيارتي؟ ان انتشال هذه
السيارات يستلزم أكثر من أربع ساعات، وفي هذا الوقت يكون عمي
الحج رضا قد وصل إلى بيته.

قال الحج رضا:

- تمام! ان صوت محرك سيارتك أرحم من الوقوف هنا مدة أربعة
ساعات.

وقاد أبو الخيزران سيارته الضخمة طوال ست ساعات فوق تلك
الأرض الخادعة التي تبدو بيضاء صلدة بسبب طبقة رقيقة من الملح
الذي جف على السطح، وكان أبو الخيزران، طوال الطريق، يحرك
مقود سيارته حركات خفيفة وسريعة ذات اليمين وذات اليسار كي
تستطيع العجلتان الأماميتان أن تفتحا طريقاً أوسع قليلاً من
حاجتها. .

لقد سرّ الحج رضا للغاية من براعة أبي الخيزران وتحدث بذلك لكل
أصدقائه طوال شهور. . وقد سرّ الحج أكثر حين نما إليه أن أبا الخيزران
رفض عروضاً عديدة للعمل عند سواه، بعد أن نشئت هذه الأخبار،
واستدعاه وأثنى عليه ثم زوّد راتبه قليلاً. . ما هو أهم من ذلك أن الحج
رضا بات يشترط أن يكون أبو الخيزران رفيقاً ضرورياً لكل رحلة قنص
أو سفر بعيد.

منذ أسبوع خرج الحج رضا في قافلة من سيارته إلى رحلة قنص
أقامها خصيصاً من أجل ضيوف يتزلون عنده، وقد كلف أبو الخيزران
بقيادة سيارة الماء الكبيرة التي سترافق القافلة طوال الرحلة وتؤمن الماء
الوفير للرجال أثناء الرحلة التي قد تستغرق أكثر من يومين. . لقد
ضربت القافلة بعيداً في الصحراء حتى أن الحج رضا فضل أن يسلك في
طريق عودته دروباً أخرى تصل به إلى الزبير، ومن الزبير يستطيع أن
يسلك الطريق الرئيسي الذي يعود إلى الكويت. . كان من الممكن أن
يكون أبو الخيزران الآن في الكويت، مع بقية القافلة لو لم يصب سيارته

الكبيرة عطل صغير يضطره للبقاء في البصرة يومين آخرين حتى يصلحه، ثم يلحق بمن سبق.

- أنت تريد إذن أن تضعنا داخل خزان ماء سيارتك في طريق عودتك؟

- بالضبط! لقد قلت لنفسي: لماذا لا تنتهز الفرصة فترتق بقرشين نظيفين طالما أنت هنا، وطالما أن سيارتك لا تخضع للتفتيش؟

نظر مروان إلى أبي قيس، ثم إلى أسعد فنظرا إليه بدورهما متسائلين:

- إسمع يا أبا الخيزران.. هذه اللعبة لا تعجبني! هل تستطيع أن تتصور ذلك؟ في مثل هذا الحر من يستطيع أن يجلس في خزان ماء مقفل؟

- لا تجعل من القضية مأساة، هذه ليست أول مرة.. هل تعرف ما الذي سيحدث؟ ستنزلون إلى الخزان قبل نقطة الحدود في صفوان بخمسين متراً، ساقف على الحدود أقل من خمس دقائق، بعد الحدود بخمسين متراً ستصعدون إلى فوق.. وفي المطلاع على حدود الكويت، سنكرر المسرحية لخمس دقائق أخرى، ثم هوب! ستجدون أنفسكم في الكويت!

هز أسعد رأسه ثم حذق إلى الأرض لبرهة وقد قلب شفته السفلى، أما مروان فقد أخذ يتلهى بقصف عود جاف، وواصل أبو قيس التحديق إلى السائق طويل القامة.. وفجأة قال مروان:

- هل يوجد ماء في الخزان؟

إنفجر أبو الخيزران ضاحكاً وابتسم أسعد:

- طبعاً لا.. ماذا تعتقد؟ هل أنا مهرب أم معلم سياحة؟

وكأنما راقت الفكرة لأبي الخيزران فقد مضى بهمه ويضرب فخذه بكفيه ويدور حول نفسه..

- ماذا تعتقد؟ هل أنا معلم سياحة؟ أيها الصغير: أن الخزان لم ير الماء منذ ستة شهور!

قال أسعد بهدوء:

- حسب أنك كنت تنقل الماء في رحلة قصص قبل أسبوع؟

- أوف.. أنت تعرف، تعرف ماذا أقصد.

- لا، لا أعرف.

- أقصد منذ ستة أيام.. إن المرء يبالغ أحياناً.. والآن، هل اذعننا؟ دعونا نهي هذا الاجتماع الخطير!

وقف أبو قيس مهيباً نفسه للقول الفصل، ولكنه قبل ان ينطق دَوَّر بصره على الجميع وتوقف هنيهة وهو ينظر إلى أسعد كأنه يرجوه العون، ثم اقترب من أبي الخيزران..

- إسمع يا أبا الخيزران.. أنا رجل درويش ولا أنهم بكل هذه التعقيدات.. ولكن قصة رحلة القنص تلك، لم تعجبني.. تقول أنك حملت للحجج رضا ماء، ثم تقول الآن ان خزان سيارتك لم يشم رائحة الماء منذ ستة أشهر. سأقول لك الحقيقة وأرجو أن لا تغضب: أنا أشك في أنك تملك سيارة..

إنفت أبو قيس للبقية ومضى يكمل بصوت حزين:

- أنا أفضل أن ادفع خمسة عشر ديناراً وأذهب مع مهرب عن طريق

الصحراء.. لا أريد مزيداً من المشاكل.

ضحك أبو الخيزران وقال بصوت عال:

- اذهب وجرب.. التحسب أنني لا أعرف هؤلاء المهريين؟
سيتركونكم في منتصف الطريق ويدوبون مثل فص الملح! وأنتم
بدوركم ستدوبون في قيط آب دون ان يشعر بكم أحد.. اذهب..
إذهب وجرب.. قلبك جرب الكثيرون.. تريد أن ادلك؟ لماذا تحسب
أنهم يأخذون منكم المبلغ سلفاً؟

- «ولكنني أعرف كثيرين وصلوا إلى هناك عن طريق المهريين».
- «عشرة بالمئة على الأكثر.. ثم اذهب واسألهم وسيقولون لك أنهم
أكملوا الطريق بلا مهرب وبلا دليل، وان حظهم قد ساعدهم على
النجاة».

حمد أبو قيس في مكانه، وبدا للحظة أنه موشك على السقوط.
ولاحظ مروان أن أبا قيس يشبه والده إلى حد بعيد، فأشاح بوجهه عنه،
لم يعد بوسعه أن يركز رأسه على موضوع واحد.. فيها مضى أبو
الخيزران صائحاً:

- يجب أن تقررنا بسرعة! ليس لدى مزيد من الوقت لأضيعة، أقسم
لكم بشرفي..

قال أسعد مقاطعاً هدهو:

- أترك موضوع الشرف في ناحية أخرى.. الأمور تمضي بشكل
أفضل حين لا يقسم المرء بشرفه..

إلتفت أبو الخيزران إليه وقال:

- والآن يا سيد أسعد، أنت رجل ذكي وجرب.. ما رأيك؟

- رأيي بماذا؟

- بكل شيء.

إبتسم أسعد ولاحظ أن أبا قيس ومروان ينتظران أن يسمعا قراره،
فمضى يحكي بيظه وسخرية:

- أولاً، أعفينا من تصديق قصة رحلة القنص!.. يبدو لي أن الحج
رضا وجنابك تعملان بالتهريب.. عفوك قليلاً، دعني أكمل.. الحج
رضاي يعتقد أن تهريب الأشخاص في طريق العودة أمر تافه، لذلك يتركه
لك، أما أنت فترك له بالمقابل تهريب الأمور الأهم.. وينسب من
الأرباح المعقولة، أم تراه لا يعرف أنك تهرب أشخاصاً في طريق
العودة؟

إبتسم أبو الخيزران ابتسامة واسعة فبانت أسنانه البيضاء النظيفة من
جديد وبدا أنه لا يريد أن يجيب أسعد.. قال مروان فجأة:

- وقصة القنص؟

- أوه! قصة القنص معدة لرجال الحدود، ليس لنا.. ولكن أبا
الخيزران لا يجد بأساً من أن يروها..

إتسعت ابتسامة أبي الخيزران أكثر من قبل وأخذ يبادل الرجال النظر
دون أن يتكلم.. وبدا، للحظة، أنه غبي.

قال أبو قيس:

الطريق

لم يكن الركوب فوق ظهر السيارة الجبارة مزعجاً كثيراً. فرغم أن الشمس كانت تصب جحيمها بلا هوادة فوق رأسيها إلا أن الهواء الذي تان ييب عليهما بسبب سرعة السيارة خفف من حدة الحر. كان أبو قيس قد صعد مع مروان الى فوق وجلسا على حافة الخزان متجاورين أما أسعد فقد رست عليه القرعة ليجلس الى جانب السائق في الفترة الأولى من الرحلة.

قال أسعد محدثاً نفسه:

- «سوف يأتي دور المعجوز أخيراً ليستظل هنا. ولكن لا بأس، على أي حال، فإن الشمس تبقى محتملة الآن. أما عند الظهيرة فسيكون حظ المعجوز حسناً.»

قال أبو الخيزران فجأة، بصوت عالٍ ليسمع عبر هدير المحرك:

- هل تتصور؟.. إن هذه الكيلومترات المئة والخمسين أشبهها بيبي وبين نفسي بالسراط الذي وعد الله خلقه أن يسيروا عليه قبل أن يجري توزيعهم بين الجنة والنار. فمن سقط عن السراط ذهب إلى النار، ومن اجتازه وصل إلى الجنة. أما الملائكة هنا فهم رجال الحدود! انفجر أبو الخيزران ضاحكاً كأنه لم يكن هو الذي قال ذلك، ثم أخذ يضرب المقود بكلتا يديه ويهز رأسه..

- ولكن ماذا يهرب الحج رضا؟ لقد قلت انه رجل ثري!

نظر الجميع الى أبي الخيزران الذي كف، فجأة، عن الابتسام وعاد وجهه يكتسي بطابع اللامبالاة والتسلط ثم قال بحزم:

- والآن كفوا عن الثرثرة. يجب أن لا تعتقد يا سيد أسعد أنك ذكي الى هذا الحد. ماذا قررتم؟

قال أسعد بهدوء:

- أنا شخصياً لا اهتم إلا بموضوع وصولي إلى الكويت، أما ما عدا ذلك فإنه لا يعنيني. ولذلك فاني سأسافر مع أبي الخيزران.

قال مروان بحماسة:

- وأنا سأسافر معكما.

قال أبو قيس:

- هل تعتقدون أنه بوسعي أن أرافقكم، أنا رجل عجوز..

ضحك أبو الخيزران بعنف ثم شبك ذراعه بذراع أبي قيس.

- له! له! يا أبا قيس.. من الذي أوهمك أنك عجوز الى هذا الحد؟ ربما لم قيس! له! يجب أن تأتي معنا..

كانا قد سارا خطوات قليلة معا وتركنا مروان وأسعد واقفين إلى جانب مقعد الاسمنت الكبير، إلتفت أبو الخيزران من فوق كتفه وصاح:

- سينام أبو قيس معي في السيارة.. وسأزمر لكما صباح غد الباكر أمام الفندق.

أتعرف؟ انني أخاف أن تفتس البضاعة، هناك..

أشار بعنقه الى حيث يجلس العجوز مع مروان فوق الخزان ومضى
بضحك بعنف..

قال أسعد بهدوء:

- قل لي يا أبا الخيزران.. ألم تتزوج ابداً؟

- انا؟

سأل بعجب، واكتسى وجهه الهزبل بالأسى كأنه لم يكن بضحك
قبل هنيهة.. ثم قال ببطء:

- لماذا تسأل؟

- لا لشيء معين.. كنت أقول لنفسي ان حياتك رائعة.. لا أحد
يشدك من هنا ولا أحد يشدك من هناك.. وتطير أنت منفرداً حيث
شئت، تطير.. تطير.. تطير..

هز أبو الخيزران رأسه ثم ضيق جفنيه كي يتلافى ضوء الشمس
الذي انصب، فجأة، فوق زجاج الواجهة.. كان الضوء ساطعاً بحدته
حتى أنه لم يستطع، بادئ الأمر، أن يرى شيئاً.. إلا أنه أحس بالم فظيع
يتلوي بين فخذه، ثم استطاع أن يتبين، بعد لاي، أن ساقيه
مربوطتان إلى حالتين ترفعانهما الى فوق، وان عدداً من الرجال يدور
حوله.. أغمض عينيه برهة ثم فتحهما، مرة أخرى، على وسعيهما.
كان الضوء المستدير الموضوع فوق رأسه يحجب عنه السقف ويعشي
بصره. ولم يستطع أن يتذكر، وهو مقيد هناك على ذلك الشكل المحكم

والغريب، أكثر من شيء واحد حدث له منذ برهة، ليس غير.. كان
يركض مع عدد من الرجال المسلحين حين تفجرت جهنم أمامه فسقط
على وجهه.. هذا كل شيء، والآن، الألم الفظيع ما زال يفوص بين
فخذه والضوء المستدير الضخم معلق فوق عينيه وهو يحاول أن يرى الى
الأمور والأشخاص مضيئاً جفنيه قدر ما يستطيع.. وفجأة خطر له
خاطر أسود فبدأ يصيح بجنون، ليس يذكر ما الذي قاله حينذاك،
ولكنه أحس بيد تطبق فوق فمه بعنف، كانت تلبس قفازاً لزجاً..
ووصله الصوت، كأنما عبر قطن:

- كن عاقلاً.. كن عاقلاً.. إن ذلك على أي حال أفضل من أن
تموت!..

ليس يدري هل استطاعوا ان يسمعوه وهو يصيح من بين أسنانه
واليد اللزجة مطبقة فوق فمه؟ أم ان صوته ضاع في حلقه، انه، على أي
حال، ما زال يسمع الصوت نفسه كأن إنساناً آخر كان يصيح في أذنيه:
- لا.. الموت أفضل.

والآن.. مررت عشر سنوات على ذلك المشهد الكريه.. مررت عشر
سنوات على اليوم الذي اقتلعوا فيه رجولته منه، ولقد عاش هذا الذل
يوماً وراء يوم وساعة اثر ساعة، مضغه مع كبريائه، وافتقده كل لحظة
من لحظات هذه السنوات العشر ورغم ذلك فانه لم يعتده قط، لم يقبله
قط.. عشر سنوات طوال وهو يحاول أن يقبل الأمور.. ولكن أية أمور؟
ان يعترف ببساطة بأنه قد ضيّع رجولته في سبيل الوطن؟ وما النفع؟ لقد
ضاعت رجولته وضاع الوطن وتباً لكل شيء في هذا الكون
الملعون..

كلا إنه لم يقبل، بعد عشر سنوات، أن ينسى مأساته ويعتادها. بل أنه لم يقبل ذلك حتى حين كان تحت الموضع يحاولون أن يقنعوه بأن فقدان الرجولة أرحم من فقدان الحياة. يا إله الشياطين، إنهم لا يعرفون ذلك قط، لا يعرفون شيئاً ثم ينتطحون لتعليم الناس كل الأشياء. . . أتراه لم يقبل أم إنه كان عاجزاً عن القبول؟ منذ اللحظات الأولى كان قد قرر أن لا يقبل، نعم، هذا هو الصحيح بل أنه كان عاجزاً عن تصور الأمر بتمامه حتى أنه، بلا وعي، هرب من المستشفى قبل أن يشفى نهائياً. . . كأن هروبه كان قادراً على تسوية الأمور من جديد، لقد احتاج إلى وقت طويل حتى يعتاد مجرد الحياة. . . ولكن، تراه اعتادها؟ ليس بعد. . . كلما سئل بشكل عابر: «لماذا لا تتزوج؟» عاد إليه الإحساس الكريه بألم يفوق بين فخذه كأنه ما زال ملقى تحت الضوء المستدير الساطع وساقاه مرفوعتان إلى فوق.

كان الضوء متوهجاً وساطعاً حتى أن عينيه بدأتا تدمعان، عندها، مدّ أسعد يده فأنزل حاجبة الشمس المستطيلة ليقع الظل على وجه أبي الخيزران :

- ونعم، إن هذا أفضل. . . شكراً. . . أتعرف؟ إن أبا قيس رجل محظوظ! أحسن أسعد بأن أبا الخيزران يريد تغيير موضوع الزواج الذي أثاره بسؤاله فاستجاب لذلك ببساطة :

- لماذا؟

- لو قدر له أن يذهب مع المهربين لكان وصوله إلى الكويت بمثابة أعجوبة لا أكثر ولا أقل.

كُف أبو الخيزران ذراعيه على المقود واتكأ بصدرة فوقها. .

- أنت لا تعرف كيف تجري الأمور هنا. . . كلكم لا تعرفون. . .
إسألني أنا. . . إسألني، انني أعرف قصصاً يبلغ عددها عدد شعر القط!
- إن الرجل السمين يبدو طيباً. . . لقد ملت إليه.

أنزل أبو الخيزران رأسه ومسح عرق جبينه بكفه المتكئة على المقود وقال:

- هه! إن الرجل السمين لا يذهب معك عبر الحدود وهو لا يعرف
ماذا يحدث. . .

- ماذا يحدث؟

- لي ابن عم يدعى حسنين، هُرب مرة عبر الحدود، وبعد مسير أكثر من عشر ساعات، حل الظلام. . . عندها أشار المهرب إلى مجموعة من الأضواء البعيدة وقال: تلك هي الكويت. . . وصلونها بعد مسيرة نصف ساعة. . . أتدري ما الذي حدث؟ لم تكن تلك الكويت. . . كانت قرية عراقية نائية! أستطيع أن أروي لك آلاف من القصص المشابهة. قصص رجال تحولوا إلى كلاب وهم يبحثون عن نقطة ماء واحدة يغسلون بها ألسنتهم المشققة. . . وماذا تحسب أنه حدث حين شاهدوا خيام البدو؟ لقد اشربوا جرعة الماء، بكل ما يملكون من نقود أو خواتم زواج أو ساعات. . . يقولون إن حاتم كان بدوياً. . . ولكنني اعتقد أنها مجرد كذبة. . . ذلك زمن راح يا أبا السعد. . . راح. . . ولكنكم لا تدركون ذلك. . . تحسبون أن الرجل السمين بوسعه أن يعمل كل شيء. . . أعرف رجلاً عاش في الصحراء وحيداً مدة أربعة أيام، وحين التقطته

سيارة على طريق الجهرة كان على وشك أن يلفظ آخر أنفاسه . . أتدري ماذا فعل؟ كان يريد شيئاً واحداً من كل هذه الحياة . . كان يريد أن يعود الى البصرة فور أن يسترد صحته، ويعود إليها عبر الصحراء أيضاً إذا لزم الأمر . . أتعرف لماذا؟ قال لي انه يريد العودة الى هناك كي يطبق بكفيه حول عنق الرجل السمين ويخنقه، ثم لتقم القيامة . . كان قد بدأ رحلته مع صديقين من أصدقاء شبابه، من غزة، عبر إسرائيل، عبر الأردن، عبر العراق . . ثم تركهم المهرب في الصحراء، وهم لما يعبروا حدود الكويت . . لقد دفن صديقيه بتلك الأراضي المجهولة وحمل معه هويتيهما على أمل أن يصل إلى الكويت، فيرسلهما الى أهليهما. لم يكن يريد لأحد أن ينصحه . . كان يقول انه لا يريد أن ينسى ولا يريد أن يغفر . . وبعد مرور أقل من شهر عاد أدراجه إلى العراق، ولكنهم القوا القبض عليه . . وهو الآن يمضي سنته الثانية في سجن حقير . . ماذا تراك تحسب؟ تاتون إلينا من المدارس مثل الأطفال وتحسبون أن الحياة هينة . التحسب أن أبا قيس لم يكن يقامر بحياته . . وسوف يكون هو الخاسر! انا متأكد من ذلك تأكدي من الشمس الملعونة هذه! غداً حين تصل إلى الكويت ستذكرني بالخير وتقول: كان أبو الخيزران يحكي الصحيح، ثم محمد ربك ألف مرة لأنني أنقذتك من أظافر الرجل السمين . . هل رأيت في عمرك كله هيكلاً عظيماً ملقى فوق الرمل؟

- ماذا قلت؟

- سألتك: هل رأيت في عمرك كله هيكلاً عظيماً ملقى فوق الرمل؟

- كلا . . .

دور أبو الخيزران مفود سيارته بعنف ليتجاوز حفرة واسعة في الرمل، ثم بدأت السيارة تحب وترتجف فوق طريق تشبه المدرج المبسط. وأحسن أسعد بأن امعاهه على وشك أن تقفز من بين أسنانه المصطكة . . كنت سترى الكثير منها لو مشيت مع المهريين . . وعن أي حال، سوف لن يعني ذلك شيئاً . . .

- لماذا؟

- لأنك ستكون مشغولاً عن التفكير به . . أو، مثل قال حسين، لأنك لا تريد أن تفكر به . .

- إنسبه أسعد بيلاهة، مجرد أنه لا يعرف ماذا يتعين عليه أن يفعل، ثم سأل وهو يبتكر أبا الخيزران في حاضرتهم:

- ماذا نعمل إذن في التهريب؟

- أنا؟ أنا لا أعمل في التهريب . .

ضحك أسعد وصرب كفه فوق فخذ أبي الخيزران:

إذن ماذا تسمي هذا؟

- أقول لك الحقيقة؟ ابي أريد مزيداً من النقود . . مزيداً من النقود . . مزيداً من النقود . . ولقد اكتشفت أنه من الصعب تجميع ثروة

عن طريق التهذيب . . أترى هذا المخلوق الحقير الذي هو أنا؟ التي

ملكك بعض المال! . . وبعد عامين سأترك كل شيء وأستقر . . أريد أن

أستريح . . أتمدد . . أستلقي في الظل وأفكر أو لا أفكر . . لا أريد أن

أتحرك قط . . لقد تعبت في حياتي بشكل أكثر من كاف! إي والله،

أطفأ أبو الخيزران المحرك بسرعة، وفتح الباب ثم قفز إلى الأرض . . وأخذ يصيح :

- لقد بدأ الجدد . . هيا . . سأفتح لكم باب الخزان . . هاها سيكون
الطقس كالأخرة، هناك في الداخل . .

صعد بخفة فوق السلم الحديدي الصغير وأخذ يعالج باب الخزان المستدير وفكر مروان ببطء : «ان ذراعيه قويتان . . كانوا يتصببون عرفاً، إلا أن قميص أبي الخيزران كان مبتلاً تماماً وكان وجهه يبدو كأنه مطلي بالوحل .

إنفتح الباب مقرعاً ورفع أبو الخيزران طرف القرص الحديدي إلى فوق فاستوى واقفاً فوق مفصله وبدأ باطنه أحمر من فرط الصدا . .
جلس أبو الخيزران إلى جانب الفوهة موسعاً ما بين ساقيه المدلاتين وأخذ يمسح عرقه بالمنديل الأحمر الذي يلفه على مؤخرة رقبته، تحت قبة القميص الأزرق، وكان يلهث :

- أنصحكم أن تنزعوا قمصانكم . . الحر خائق ومخيف هنا وسوف تترققون كأنكم في المقل . . ولكن . . لحسن دقائق أوسيع، وسوف أتود بأقصى ما أستطيع من السرعة . . توجد في الداخل عوارض حديدية . . في كل زاوية عارضة . . انني أفضل أن تمسكوا بها جيداً وإلا تدرجتكم كالكرات . . طبعاً ستخلمون أحذبتكم . .

بقي الجميع واقفين على الأرض دون حراك، نهض أبو الخيزران ثم قفز إلى تحت وكان يحاول أن يضحك :

- بوسع المرء أن ينام في الداخل لو كان الطقس أرحم قليلاً . .

نظر أبو قيس إلى مروان ثم نظر كلاهما إلى أسعد . . الذي خطأ . . تحت تأثير تلك النظرات - خطوتين صغيرتين إلى الامام، ثم عاد، فوقف من جديد، وكان أبو الخيزران يراقبه .

- أنصحكم أن تعملوا قليلاً . . إننا مازلنا في مطلع النهار وبعد قليل سيصبح الخزان من الداخل فرناً حقيقياً . . بوسعكم أن تأخذوا معكم مطارة، ولكن لا تستعملوها حين تحسون أن السيارة واقفة . .

حسم مروان رايه فاقرب متسرعاً من السلم الحديدي، إلا أن أسعد سبقه فتسلق العجل ثم انحنى فوق الفوهة المفتوحة وأسقط رأسه داخل الخزان لبرهة وجيزة، ثم عاد فرفعه :

- هذه هي جهنم! إنها تنفد!

قال أبو الخيزران وهو يفرش كفيه الكبيرتين :

- لقد قلت لكم ذلك من قبل . .

كان مروان قد وصل هو الآخر ودس رأسه داخل الفوهة ثم عاد فرفعه وقد ارتسمت على وجهه علائم الاشعثزاز والرعب . . أما أبو قيس فقد وصل إلى جانبها لاهناً . . وصاح أبو الخيزران من تحت :

- أتعرفون ماذا تفعلون إذا راود أحدكم العطاس؟

إنسم أسعد ابتسامة باهتة بينما نظر مروان إلى تحت وبدا أن أبا قيس لم يفهم السؤال . .

- ليضع إصبعه تحت منخريه مستقيماً . . هكذا . .

مثل أبو الخيزران الحركة فبدا وجهه مضحكاً وقال أسعد وهو يخبطو
إلى الامام:

- لا أعتقد أن أحدنا سيعطس في هذا القرن.. لا تفلق من هذه
الناحية..

وضع أسعد كفيه على خاصرته ووقف الى جانب الفوهة مطأطأ
رأسه وكأنه يريد أن يرى ماذا يوجد في الداخل.. بينما خلع أبو قيس
قميصه ولفه باعتناء تحت إبطه، ولبس عذاره مشعراً شائباً وعظام كنفه
بارزة الى الامام.. جلس على حافة الفوهة مدلياً ساقيه داخلها. رمى
بقميصه أولاً، ثم بدأ ينزلق ببطيئاً مستقيماً معتمداً على ذراعيه
المشدودتين فوق حافة الفوهة حتى إذا ما لمست قدماه أرض الخزان
أرخص ذراعيه وجعل جسده ينساب باعتناء، فغاص رأسه ثم توارت
ذراعاه..

قوس أسعد جسده وصاح:

- كيف ترى الأمور؟

ودوى صوت عريض من الداخل كأنه أت من عمق سحيق:

- إنه بئر ملعونة.. تعال.

نظر أسعد إلى مروان الذي خلع قميصه ووقف ينتظر بينها بدأ أبو
الخيزران يتسلق السلم الحديدي من جديد.

- دور من؟

- دوري.

توجه مروان إلى الفوهة وأدار لها ظهره.. انزل سائر أولاً جاعلاً
بطنه فوق الحافة ثم انزلق الجسد ببراعة، وبقيت الكفان متمسكتين
بإطار الفوهة لبرهة، ثم اختفتا.

لحق أسعد بزميليه دون أن يخلع قميصه، وحين وارته الفوهة انحنى
أبو الخيزران محاولاً أن يرى الوضع في الداخل إلا أنه لم ير شيئاً، في كل
مرة كان يطل بها كان جسده يحجب الضوء المتسلل من الفوهة فتعذر
الرؤيا، وأخيراً صاح:

- ها؟

وأجابه صوت عريض:

- ماذا تنتظر؟ عجل، إننا على وشك الاختناق!

أغلق أبو الخيزران الغطاء بسرعة ودور يده المضلعة دورتين ثم
انحدر راکضاً الى مقعده، وبدأت السيارة، قبل أن يغلق الباب، تلتهم
الطريق.

في تلك الدقائق القليلة كانت، ثمة، فكرة واحدة تحوم في رأس أبي
الخيزران، ليس غير.

إن الطريق المحفرة، التي تشبه درجاً منبسطة، تهمز السيارة وترجفها
بلا هوادة وبلا إنقطاع.. إن هذا الهزيز جدير بأن يجعل البيض عجة في
وقت أقل مما تستطيع الحفاقة الكهربائية أن تفعل.. لا بأس بذلك
بالنسبة لمروان فهو فتى، ولا بأس بذلك بالنسبة لأسعد فهو قوي
البنية.. ولكن، ماذا عن أبي قيس؟ لا شك أن أسنانه تصطك مثل
إنسان على وشك أن يموت من شدة الصقيع، ولكن الفرق أنه ليس ثمة

بوسع أبي الخيزران أن يتلانى بعض هذا الميزر لو زاد من سرعته أكثر . . . لو جعل هذه الذبابة الجهنمية تسير بسرعة مئة وعشرين بدل التسعين التي يشير لها المؤشر الآن . . . ولكن إذا فعل ذلك من يضمن أن لا تنقلب السيارة فوق مثل هذه الطريق الملعونة؟ لا بأس أن تنقلب السيارة، فهي ليست له، ولكن ماذا لو استقرت على قفاها؟ ثم من قال أن محرك السيارة يتحمل مثل هذه السرعة في مثل هذا الجو وهذه الأرض؟ إنهم يضعون دائماً على المؤشر أرقاماً عالية ليس من الحكمة أن يبلغها السائق الماهر . . .

لم يخفف السرعة حين وصل الى صفوان، بل انه - حين دور في الساحة متجهاً الى اليسار حيث يقوم المخفر لم يرفع قدمه عن مضغط البنزين قيد شجرة بل جعلها دورة واسعة نثرت الغبار في حلقة واسعة . . . ولم يرفع قدمه إلا حين ضغط المكبح أمام باب المخفر بعنف، ومرق كالسهم إلى الداخل.

ساحة الجمر كساحة رملية واسعة في صفوان تتوسطها شجرة كبيرة يتيمة تهطل أوراقها المتطاولة فترمي ظلاً واسعاً في الساحة . . . وعلى الأطراف تنتصب حجرات ذات أبواب خشبية واطئة في داخلها مكاتب مكتظة ورجال مشغولون دائماً . . . لم يلحظ أبو الخيزران، وهو يقتحم الساحة بقده المديد، سوى بعض النسوة الجالسات في ظل الشجرة ملتفتات بالعباءات كان ثمة طفل أو طفلان يقفان الى جانب صنوبر المياه وكان الحاجب نائماً فوق كرسي القش العتيق .

- أبو الخيزران متعجل اليوم!

- نعم . . . الحج رضا ينتظر . . . إذا تأخرت طردني .

- الحج رضا لن يطردك، لا تخف . . . لا يمكن ان يعثر على شاب مثلك .

- هه! الشباب يملأون الأرض كالقفع . . . لو أشار بيديه لتهاووا فوقه كالذباب

- ماذا تحمل معك؟

- أسلحة! دبابات! ومصفحات! وست طائرات ومدفعين . . .

انفجر الرجل ضاحكاً من أعماقه وتناول أبو الخيزران الأوراق من تحت يديه بخفة وانطلق الى الخارج . . . قال في ذات نفسه وهو يدخل إلى غرفة أخرى: «أصعب المراحل انتهت» بعد دقيقة واحدة خرج من الغرفة الأخرى . . . وبأقل من نح البصر كان يدور المحرك فيمزق السكون الضارب فوق صفوان وينطلق إلى الطريق من جديد.

فيما كانت السيارة تنطلق كالسهم تاركة وراءها خطاً من غيوم الغبار كان أبو الخيزران ينزف عرقاً غزيراً يصب في وجهه حررات متشعبة تلتقي عند ذقنه . . . كانت الشمس ساطعة متوهجة وكان الهواء ساخناً مشبعاً بغبار دقيق كأنه الطحين: «لم أزر في حياتي مثل هذا الطقس اللعين . . .» فك أزرار قميصه فلامست أصابعه شعر صدره الغزير المتل . . . كانت الطريق قد استوت، ولم تعد السيارة ترجف شأنها من قبل فزاد من سرعته - كان المؤشر يندفع إلى الأمام ككلب أبيض مربوط إلى وتد.

نظر إلى الأمام بعينه الغارقتين في عرقه فبين نهاية الهضبة الصغيرة . . . وراء هذه الهضبة محتجب صفوان، وهناك يتعين عليه أن

لاهنأ:

- اووف! الطقس هنا في غاية البرودة!

كان وجهه محمراً ومبتلاً، وكان ينطاله مغسولاً بالعرق أما صدره فقد
مانطعت عليه علائم الصداً فبدا وكأنه ملطخ بالدم . . . نهض مروان
وهبط السلم الخديدي بإعياء . . . كانت عيناه حراوين وكان صدره
مصوبغاً بالصداً وحين وصل إلى الأرض وضع رأسه فوق فخذاً أبي قيس
ومدد جسده ببطء إلى جانب العجل . . . بعد لحظة تبعه أسعد ثم أبو
الخيزران فجلسا واضعين رأسيهما فوق ركبهما المنطوية . . . قال أبو
الخيزران بعد فترة:

- هل كان الأمر مخيفاً؟

لم يجبه أحد . . . فدور نظره فوق وجوههم فبدت له وجوهاً صفراء
محنطة، ولولا أن صدر مروان كان يرتفع ويهبط، ولولا أن أبا قيس كان
يتنفس بصفير مسموع، لخيّل إليه إذن أنها ميتان . . .

- قلت لكم سبع دقائق . . . ورغم ذلك لم يستغرق الأمر أكثر من
ست .

نظر إليه أسعد بيروود بينما فتح مروان عينيه دون أن ينظر إلى شيء،
معين ودور أبو قيس وجهه إلى الناحية الأخرى .

- أقسم لك بشرفي . ست دقائق! أنظر إلى الساعة يا أسعد . ست
دقائق بالضبط! أنظر! لماذا لا تريد أن تنظر؟ لقد قلت لكها ذلك، قلته
منذ البدء، وأنتم تعتقدون الآن أنني أكذب عليكم . . . ها هي
الساعة . . . أنظر . . . أنظر .

رفع مروان رأسه ثم استند على عضديه وأخذ ينظر، ملقياً برأسه

رؤود صغط قدمه فوق المضغط كما تنسلق السيارة الهضبة دون أن
تباطأ، وأحس بأن عضلة ساقه قد تكوّرت حتى أوشكت أن تتمزق،
الأرض تنطوي والسيارة تزأر، والزجاج يتوهج والعرق يحرق عينيه،
وما تزال قمة الهضبة تتراءى له بعيدة كالأبد . . . يا إلهي العزيز العلي
لتغفّر، كيف يمكن لقمة هضبة ما أن تعني كل هذه المشاعر التي تموج في
شرايينه ويصب فيها على جلده الملوّث بالوحل عرقاً مالحاً؟ يا إلهي العلي
الذي لم تكن معي أبداً . الذي لم تنظر إلي أبداً، الذي لا أو من بك
أبداً . أيمن أن تكون هنا هذه المرة؟ هذه المرة فقط؟

رفّ عينيه رفات سريعة ليغسل العرق عن جفنيه، وحين فتحها أخرج
مرة كانت قمة الهضبة قد صارت امامه . . .

وصل إلى أعلاها فأطفأ المحرك وترك السيارة تنزلق قليلاً ثم أوقفها
وقفز من الباب إلى ظهر الخزان .

أخرج مروان أولاً: رفع ذراعيه فانتشله أبو الخيزران بعنف وتركه
مفروشاً فوق سطح الخزان . . . أطل أبو قيس برأسه ثم حاول أن يخرج
إلا أنه لم يستطع، عاد فأخرج ذراعيه وترك أبا الخيزران يساعده . . . أما
أسعد فقد استطاع أن يتسلق الفوهة . كان قد خلغ قميصه .

جلس أبو الخيزران فوق سطح الخزان الساخن . كان يلهث وبدا أنه
قد كبر عن ذي قبل . . . بينما انزلق أبو قيس ببطء فوق العجلات
واستلقى في ظل السيارة منبطحاً على وجهه . وقف أسعد هنيهة يتشوق
بملء صدره . كان يبدو أنه يريد أن يتكلم إلا أنه لم يستطع . . . وأخيراً قال

بعض الشيء إلى الورا، باتجاه أبي الخيزران.. لم يكن يبدو أنه يراه بوضوح..

و هل جربت أن تجلس هناك ست دقائق؟

- لقد قلت لكم..

- ثم إنها لم تكن ست دقائق..

- لماذا لا تنظر إلى ساعتك.. لماذا؟ إنها في رسغك، هيا انظر.

انظر.. وكف عن التحديق بي كالمجنون..

قال أبو قيس:

- إنها ست دقائق.. كنت طوال الوقت أعدّ.. من الواحد إلى

السين: دقيقة، هكذا حسبت.. عددت ست مرات.. في المرة الأخيرة عددت ببطء شديد..

كان يتكلم بصوت منخفض وبيطه.. فقال أسعد:

- ماذا بك يا أبا قيس، هل أنت مريض؟

- أنا؟ أنا؟ أوف، كلا.. لكنني أتنفس حصتي من الهواء.

وقف أبو الخيزران ونفض عن بنطاله الرمل ثم ثبت كفيه فوق خاصرتيه وأخذ ينقل بصره بين الرجال الثلاثة:

- هيا بنا.. يجب أن لا نضيع وقتاً أكثر.. أمامكم حمام تركي آخر

بعد فترة وجيزة.

نهض أبو قيس واتجه إلى غرفة السائق بينما تسلق أسعد السلم

الحديدي وبقي مروان جالساً في الظل.

قال أبو الخيزران:

- ألا تريد أن تنهض؟

- لماذا لا نستريح قليلاً؟

صاح أسعد من فوق:

- سنستريح كثيراً بعد أن نصل وليس قبل ذلك.. هيا..

ضحك أبو الخيزران بصوت عال.. ثم ضرب بكفه فوق كتف

مروان وقال:

- تعال اجلس إلى جانب أبي قيس، إنك نحيل ولن تضايقنا كثيراً.

ثم إنك، كما يبدو متعب جداً.

صعد مروان فجلس إلى جانب أبي قيس بينما صاح أبو الخيزران

بصوت عال قبل أن يغلق الباب:

- إلبس قميصك يا أسعد وإلا شوتك الشمس..

قال مروان لأبي الخيزران بصوت موهن:

- قل له أن يترك باب الفرن مفتوحاً عله يبرد.

صاح أبو الخيزران جذلاً:

- واترك باب الخزان مفتوحاً..

هدر المحرك ومضت السيارة الكبيرة ترسم في الصحراء خطأ من

الضباب، يتعالى، ثم يذوب في القیظ..

الشمس والظل

شق العالم الصغير الموهن طريقه في الصحراء مثل قطرة زيت ثقيلة فوق صفيحة قصدير متوهجة . . . كانت الشمس ترتفع فوق رؤوسهم مستديرة متوهجة براقه، ولم يعد أحد منهم يهتم بتجفيف عرقه . . . فرش أسعد قميصه فوق رأسه وطوى ساقيه إلى فخذه وترك للشمس أن تشويهه بلا مقاومة . . . أما مروان فقد اتكأ برأسه على كتف أبي قيس وأغمض عينيه . . . وكان أبو قيس يجدق إلى الطريق مطبقاً شفثيه بإحكام تحت شاربه الرمادي الكث .

لم يكن أي واحد من الأربعة يرغب في مزيد من الحديث . . . ليس لأن التعب قد أنهكهم فقط بل لأن كل واحد منهم غاص في أفكاره عميقاً عميقاً . . . كانت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطاعمهم وأماهم وبؤسهم وبأسهم وقوتهم وضعفهم وماضيهم ومستقبلهم . . . كما لو أنها أخذت في نطح باب جبار لقد وجد مجهول . . . وكانت العيون كلها معلقة فوق صفحة ذلك الباب كأنها مشدودة إليه بحبال غير مرئية .

سوف يكون بوسعنا أن نعلم قيساً وأن نشترى عرق زيتون أو عرقين، وربما نبي غرفة نسكنها وتكون لنا، أنا رجل عجوز قد أصل وقد لا أصل . . . أو نحسب إذن أن حياتك هنا أفضل كثيراً من موتك؟ لماذا لا نحاول مثلنا؟ لماذا لا تنهض من فوق تلك الوسادة وتضرب في بلاد

الله بحثاً عن الخبز؟ هل ستبقى كل عمرك أكل من طحين الإعاشة الذي تهرق من أجل كيلو واحد منه كل كرامتك على أعتاب الموظفين؟ وتمضي السيارة فوق الأرض الملتهبة ويدري محركها بلا هواة . .

شفيقة امرأة بريئة . . . كانت صبية يافعة حين طلحت قبلة مورترز بساقها فبترها الأطباء من أعلى الفخذ . . . واه لا تحب أن يحكي انسان عن أبيه. زكريا راح . . . هناك، في الكويت، ستعلم كل شيء . . . ستعرف كل شيء . . . أنت ما زلت فتى لا تفهم من الحياة إلا قدر ما يفهم الطفل الرضيع من بيته! المدرسة لا تعلم شيئاً . . . لا تعلم سوى الكسل فاتركها وغص في المقلاة مثلما فعل سائر البشر .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة، ويدوي محركها بهدير شيطاني . . .

ربما كانت قبلة مزروعة في الأرض تلك التي داس عليها فيما كان يركض، أو ربما قذفها، أمامه، رجل كان محتبياً في خندق قريب، كل ذلك لا يهم الآن . ساقاه معلقتان الى فوق وكشفاه ما زالتا فوق السرير الأبيض المريح والألم الرهيب يتلولب بين فخذه . . . كانت، ثمة، امرأة تساعد الأطباء . كلما يتذكر ذلك يعبق وجهه بالتحجل . . . ثم ماذا نفعتك الوطنية؟ لقد صرفت حياتك مغامراً، وها أنت ذا أعجز من أن تنام الى جانب امرأة! وما الذي أفدته؟ ليكسر الفخار بعضه . أنا لست أريد الا ان أزيداً من النقود . . . مزيداً من النقود .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة . . . ويدوي محركها بالهدير دفعه الشرطي امام الضابط فقال له : تحسب نفسك بطلاً وأنت على

- جهنم الله؟

- نعم .

- مد أبو الخيزران يده فأطفأ المحرك، ثم نزل ببطء فتبعه مروان وأبو قيس بينما بقي أسعد معلقاً فوق .

جلس أبو الخيزران في ظل السيارة وأشعل لفافة ثم قال بصوت خفيض:

- لنسترح قليلاً قبل أن نبدأ التمثيلية مرة أخرى .

قال أبو قيس:

- لماذا لم تتحرك بنا مساء أمس فتوفر علينا برودة الليل كل هذه المشقة؟

قال أبو الخيزران دون أن يرفع بصره عن الأرض:

- الطريق بين صفوان والمطلاع تمتلئ بالدوريات في الليل . . في النهار لا يمكن لأية دورية أن تغامر بالاستطلاع في مثل هذا القبط . .

قال مروان:

- إذا كانت سيارتك معصومة عن التفثيش . . فلماذا لا نبقي خارج ذلك السجن الرهيب؟

قال أبو الخيزران بحدة:

- لا تكن سخيلاً . . هل أنت خائف إلى هذا الحد من البقاء خمس أو ست دقائق في الداخل؟ لقد اجتزنا أكثر من نصف الطريق ولم يبق إلا

أكتاف البغال تتظاهرون في الطريق! بصق على وجهه ولكنه لم يتحرك فيها أخذت البصقة تسيل ببطء نازلة من جبينه، لزجة كريمة تتكوم على قمة أنفه . . أخرجوه، وحينما كان في المرسم الشرطي القابض على ذراعه يعنف يقول بصوت خفيض: ويلعن أبو هالبدة . . ثم أطلقه فمضى يركض . عمه يريد أن يزوجه ابنته ولذلك يريد أن يبدأ . . لولا ذلك لما حصل الخمسين ديناراً كل حياته .

السيارة تمضي فوق الأرض الملتهبة، ويهدر محركها مثل فم جبار يزدرد الطريق . .

الشمس في وسط السماء ترسم فوق الصحراء قبة عريضة من لب ابيض، وشريط الغبار يعكس وهجاً يكاد يعمي العيون . . كانوا يقولون لهم إن فلاناً لم يعد من الكويت لأنه مات، قتله ضربة شمس، كان يفرس معوله في الأرض حين سقط فوقه وفوقها، وماذا؟ ضربة شمس قتله، تريدون أن تدفئوه هنا أو هناك؟ هذا كل شيء، ضربة شمس! هذا صحيح، من الذي سماها ضربة؟ ألم يكن عبقرياً؟ كأن هذا الخلاء عملاق خفي يجلد رؤوسهم بسياط من نار وقار مغلي . ولكن أيمن للشمس أن تقتلهم وتقتل كل الزخيم المطوي في صدورهم؟ كأن الأفكار كانت تسيل من رأس إلى رأس وتحقق بهواجس واحدة، لقد التقت العيون فجأة: نظر أبو الخيزران إلى مروان ثم إلى أبي قيس فوجده يحدق به، حاول ان يتنسم ولكنه لم يستطع فمسح عرق جبينه بكمه وقال بصوت خفيض:

- هذه جهنم التي سمعت عنها .

نهض أبو الخيزران واقفاً ثم اتجه إلى المطارة المعلقة خارج الباب وفتحها:

- سوف أقيم لكم حفلة غداء رائعة حين نصل . . سأدبح دجاجتين . .

رفع المطارة وصب في فمه الماء فبدأ يسيل من ركنيه مزرزباً إلى ذقنه ثم إلى قميصه المبتل، وحين ارتوى صب ما تبقى في المطارة فوق رأسه وترك الماء يسيل على عنقه وصدره وجبينه وبدأ شكله عجيباً. علق المطارة من جديد خارج الباب وفرش كفيه الكيبرتين وصاح:

- هيا بنا . . لقد تعلمتم الصنعة جيداً . . كم الساعة الآن؟ انها الحادية عشرة والنصف . . احسبوا . . سبع دقائق على الأكثر وأفتح لكم الباب . . تذكروا ذلك جيداً . . الحادية عشرة والنصف . .

نظر مروان إلى ساعته وهز رأسه، لقد حاول أن يقول شيئاً إلا أنه لم يستطع، فمشى خطوات قليلة إلى السلم الحديدي وبدأ يتسلقه.

طوى أسعد قميصه وغاص في الفوهة . . تردد مروان قليلاً ثم تبعه متكئاً ببطئه فوق الخافة منزلقاً ببراعة وقسوة بينما هز أبو قيس رأسه وقال:

- سبع دقائق؟

ربت أبو الخيزران على كتف أبي قيس ونظر مباشرة في عينيه، كانا

واقفين هناك معاً يتصبيان عرفاً، ولكنها لم يستطعا الكلام.

تسلق أبو قيس السلم بثبات ثم أسقط ساقيه داخل الفوهة فأعانه الشبان على النزول.

أغلق أبو الخيزران الباب ودور الذراع المضلعة دورتين ثم قفز إلى الأرض متعجلاً وانطلق إلى مقعده.

بعد دقيقة ونصف فقط اجتاز أبو الخيزران بسيارته الباب الكبير المفتوح في الأسلاك الشائكة المشدودة حول مركز المطلاع وأوقف سيارته أمام السلم العريض الذي يرقى إلى البناء المقرمذ ذي الطابق الواحد، والذي تمتد على جانبه غرف صغيرة ذات شبابيك واطئة مغلقة، بينما تقوم بضعة عربات لبيع المأكولات قبالة، وكانت أصوات مكيفات الهواء تملأ الساحة بالضجيج.

لم يكن ثمة، غير سيارة أو سيارتين واقفتين في طرف الساحة الكبيرة بالانتظار، كان الصمت مطبقاً بكثافة إلا من أصوات هدير مكيفات الهواء المثبتة على كل الشبابيك المظلة على الساحة، ولم يكن هناك سوى جندي واحد واقف في كوخ خشبي صغير يقع إلى جانب الدرج العريض.

ارتقى أبو الخيزران الدرج مسرعاً واتجه إلى الغرفة الثالثة إلى اليمين، وفور أن فتح الباب ودخل أحس، نتيجة للنظرات التي انصبت عليه من قبل الموظفين، أن شيئاً ما سوف يحدث، إلا أنه لم يتباطأ ودفع أوراقه أمام الموظف السمين الذي كان يجلس في صدر الغرفة .

- ها! أبو خيزرانة!!

قال الموظف وهو ينحي الأوراق من أمامه بلا مبالاة متعمدة ويكتف
ذراعيه فوق الطاولة الحديدية . .

- أين كنت كل هذا الوقت؟

قال أبو الخيزران لاهثاً:

- في البصرة.

- سألت عنك الحاج رضا أكثر من ست مرات.

- كانت السيارة معطلة.

ضح الموظفون الثلاثة الذين يشغلون الغرفة ضاحكين بصخب
فالتفت أبو الخيزران حوالبه حائراً ثم ثبت نظره على وجه الرجل
السمين:

- ما الذي يضحككم في هذا الصباح؟

تبادل الموظفون النظر ثم انفجروا ضاحكين من جديد . . قال أبو
الخيزران متوتراً وهو ينقل قدماً ويضعها مكان الأخرى:

- والآن يا أبو باقر . . لا وقت لدي للمزاح . . أرجوك . مدّ يده
فقرب الأوراق الى أمامه، إلا أن أبا باقر عاد فتحى الأوراق إلى طرف
الطاولة وكتف ذراعيه من جديد وهو يتسم ابتسامة خبيثة:

- سألت عنك الحاج رضا ست مرات . .

- قلت لك : كانت السيارة معطلة . . ثم إنني والحج رضا نستطيع أن
نتفاهم حين نلتقي . . وقع الأوراق رجاء، إنني على عجل . .

قرب الأوراق من جديد إلا أن أبا باقر نحاها مرة أخرى .

- كانت سيارتك معطلة؟

- نعم . . أرجوك إني مستعجل .

نظر الموظفون الثلاثة إلى بعضهم وضحكوا بنحيب . ولكن بصوت
خفيض . كانت طاولة أحدهم فارغة تماماً إلا من كأس شاي زجاجي
صغير، وكان الآخر قد كف عن عمله وأخذ يتابع ما يحدث .

قال الرجل السمين المسمى أبو باقر وهو يتجشأ:

- والآن . . كن عاقلاً يا أبو خيزرانة . . لماذا تعجل السفر في مثل
هذا الطقس الرهيب؟ الغرفة هنا باردة وسوف أطلب لك استراحة
شاي . . فتمتع بالنعم!

حمل أبو الخيزران الأوراق ثم تناول القلم من أمام أبي باقر ودار حول
الطاولة حتى صار إلى جانبه فانحنى ودفع له القلم وهو يدفع، بذراعه،
كتف أبي باقر:

- في طريق عودتي سأجلس عندك ساعة، ولكن الآن دعني أمشي
كرامة لباقر وأم باقر . . خذ .

إلا أن أبا باقر لم يمد يده وبقي يحدق إليه بعينين بلهاوين وهو على
وشك أن ينفجر بالضحك .

- أه يا ملعون يا أبا خيزرانة! لماذا لا تتذكر أنك على عجلة حين تكون
في البصرة؟ ها؟

- قلت لك ان السيارة كانت في الكاراج .

دفع له القلم مرة أخرى إلا أن أبا باقر لم يتحرك :

- لا تكذب يا أبو خيزرانة . . . لا تكذب . . . الحج رضا حكى لنا
محنة من الألف للياء . . .

- أية قصة؟

نظر الجميع إلى بعضهم فيما انقلب وجه أبي الخيزران الهزيل فصار
بيضاً من فرط الرعب وأخذ القلم يرتجف في يده .

- قصة تلك الراقصة . . . ما اسمها يا علي؟

أجاب علي من وراء الطاولة الفارغة :

- كوكب .

ضرب أبو باقر طاولته بيده واتسعت ابتسامته :

- كوكب! كوكب! يا أبا خيزرانة يا ملعون . . . لماذا لا تحكي لنا

قصصك في البصرة؟ تمثل أمامنا أنك رجل مهذب، ثم تمضي إلى
لبصرة فتمارس الشرور السبعة مع تلك الراقصة . . . كوكب . . . أه . . .

كوكب هذا هو الاسم .

صاح أبو الخيزران محاولاً أن لا يتجاوز حد المزاح .

- أي كوكب وأي بطيخ! دعني أمضي قبل أن يطردني الحج . . .

قال أبو باقر :

- لا يمكن! حدثنا عن تلك الراقصة . . . الحج يعرف قصصك كلها وقد

رواها لنا . . . هيا .

- إذا رواها الحج لكم . . . فلماذا تريدوني أن أرويها مرة أخرى .

وقف أبو باقر وصاح كالثور :

- إذن . . . إنها قصة حقيقية! . . . قصة حقيقية!

دار حول الطاولة حتى صار في منتصف الغرفة . كانت القصة

الفاجرة قد هيجته .

لقد فكر بها ليل نهار، ركب فوقها كل المجون الذي خلقه حرمانه

الطويل الممض، كانت فكرة أن صديقاً له قد ضاحج عاهرة ما، فكرة
مهيجة تستحق كل تلك الأحلام :

- تذهب إلى البصرة وتدعي أن السيارة قد تعطلت . . . ثم تمضي مع

كوكب أسعد ليالي العمر! يا سلام يا أبو خيزرانة . . . يا سلام يا

ملعون . . . ولكن قل لنا كيف أحبتك؟ الحج رضا يقول انها من فرط
حبها لك تصرف نقودها عليك وتعطيك شيكات . . . أه يا أبو خيزرانة يا
ملعون!

إقترب منه، كان وجهه محمراً وكان من الواضح أنه أمضى وقتاً طويلاً

وهو يتفكر في القصة كما رواها الحاج رضا له على الهاتف . . . انحنى فوق
أذنه وهمس بصوت مبحوح :

- أتراها فحولتك؟ أم قلة الرجال؟

ضحك أبو الخيزران ضحكة هستيرية ودفع الأوراق إلى صدر أبي

باقر الذي تناول القلم دون وعي وأخذ يوقعها وهو يرتج بالضحك

المكبوت، ولكن حين مدَّ أبو الخيزران يده ليتناولها خباها أبو باقر وراء ظهره ومد ذراعه الأخرى بينه وبين أبي الخيزران.

- في المرة القادمة سأذهب معك إلى البصرة. . أتوافق؟ تعرفني على كوكب هذه. . الحج رضا يقول إنها جميلة حقاً.

قال أبو الخيزران راجفاً وهو يمد ذراعه محاولاً أن يصل إلى الأوراق:

- موافق. .

- بشرفك؟

- بشرفي. .

ضج أبو باقر بالضحك من جديد وأخذ يهز رأسه المدور وهو يعود إلى مكتبه بينما اندفع أبو الخيزران بأوراقه إلى الخارج وصوت أبي باقر يلاحقه:

- يا ملعون يا أبا خيزرانة! خدعنا أكثر من ستين، وانكشف الآن. . آه يا ملعون يا أبا خيزرانة.

اقتحم أبو الخيزران الغرفة الأخرى وهو يحدق إلى ساعته، كانت تشير إلى الثانية عشرة الأرباعاً. . توقيع الأوراق الأخرى لم يستغرق أكثر من دقيقة. . وحين صفق وراءه الباب لسعه القيط من جديد ولكنه لم يهتم بالأمر وقفز الدرج العريض مثنى مثنى حتى صار أمام سيارته، حدق إلى الخزان لحظة وخيل إليه أن حديده على وشك أن ينصهر تحت تلك الشمس الرهيبة، استجاب المحرك لأول ضغطة، وطوى الباب في لحظة دون أن يلوح للحارس. . الطريق الآن معبدة تماماً وأمامه دقيقة أو

دقيقة ونصف ليتجاوز أول منعطف يجذبه عن مركز المطلاع، لقد اضطر إلى تخفيف السرعة قليلاً حين التقى سيارة شحن كبيرة، ثم عاد فأطلق لسيارته كل العنان الممكن وحين وصل إلى المنعطف صغرت العجلات صغيراً متواصلاً كأنه النواح وكادت أن تمس الرصيف الرملي وهي تقوم بدورها الشيطانية الواسعة. . لم يكن في رأسه أي شيء سوى الرعب وخيل إليه أنه على وشك أن يقع فوق مقوده مغنياً عليه. . كان المقود ساخناً وكان يحسه يحرق كفيه الخشتين ولكنه لم يخفف من تمسكه به، كان المقعد الجلدي يلتهب تحته وكان زجاج الواجهة مغبراً يتوهج بريق الشمس.

أزيز عريض ترسله العجلات كأنها تسلخ الإسفلت سلخاً من تحتها، أكان من الضروري أن تتفلسف يا أبا باقر؟ أكان من الضروري أن تقىء كل قاذوراتك على وجهي وعلى وجوههم؟ يا لعنة الإله العلي القدير عليك، يا لعنة الإله الذي لا يوجد قط في أي مكان تنصب عليك يا أبا باقر! وعليك يا حاج رضا يا كذاب! راقصة؟ كوكب؟ يا لعنة الله عليكم كلكم. .

أوقف السيارة بعنف وتسلق فوق العجل إلى سطح الخزان. . وحين لامست كفاه السطح الحديدي أحس بها تحترقان ولم يستطع أن يبقيهما هناك فسحبهما واتكأ بكفيه. . عند الكوعين. . فوق حديد السطح ثم زحف إلى القفل المضلع، وأمسكه بطرف قميصه الأزرق ودوره فافتح مقرعاً واستوى القرص الحديدي الصدىء مستقيماً فوق مفصله. .

حين ترك القرص لمح عقارب الساعة الملتفة على زنده: كانت تشير إلى الثانية عشرة إلا تسع دقائق. وكان زجاجها المدور قد تشقق شقوقاً

يتزف عرقاً بشكل مريع حتى بات يشعر أنه مدهون بالزيت الثقيل ولم يدر، أهو يرتحف بسبب طباق شد الزيت على صدره وظهره، أم بسبب الرعب؟ تحسس طريقته منحياً إلى القووة وحين أخرج رأسه منها لم يدر لماذا سقطت في ذهنه صورة وجه مروان دون أن تشرح. لقد أحس بالوجه يلبسه من الداخل مثل صورة ترتحف على حائط فأخذ يهر رأسه بعنف وهو ينسل من القووة فتحرق رأسه شمس لا ترحم. وقف هنيهة يتشقق هواً، جديداً، لم يكن يستطيع أن يفكر بأي شيء، كان وجه مروان يطغى في رأسه مثل نبعه التيتمت هادئة من الأرض شامخة إلى علو رهيب. . . وحين وصل إلى كرسيه تذكر أن فوس، كان قميصه مازال موضوعاً عن المقعد إلى جانبه فتناوته بأصابعه وقذف به بعيداً. . . ودور محرك سيارته فبدأ يهدر من جديد، ومضت السيارة تدرج فوق المنحدر ببطء وجبروت

التفت وراءه، عبر النافذة المشبكة الصغيرة، فشاهد القرص الحديدي مفتوحاً مستويّاً فوق مفصله يأكل باطنه الصدأ. . . وفجأة غاب القرص الحديدي وراء نقاط من الماء المالح ملأت عينيه. كان الصداع يتآكله وكان يحس بالدوار الى حد لم يعرف فيه. . . هل كانت هذه النقاط المألحة دموعاً؟ أم عرقاً نزفه جبينه الملتهب؟

القووة المفتوحة بقيت تخفق بالفراغ لحظة، كان وجه أبو الخيزران مشدوداً إليها متشججاً وشفته السفلى ترتحف بالنهاث والرعب، سقطت نقطة عرق عن جبينه إلى سطح الخزان الحديدي وما لبثت أن جفت. . . وضع كفيه على ركبتيه وقوس ظهره المبتل حتى صار وجهه فوق القووة السوداء وصاح بصوت خشبي يابس:

- أسعد!

دوى الصدى داخل الخزان فكاد أن يتقرب أذنيه وهو يرتد إليه، وقبل أن تتلاشى دوامة الهدير التي خلفها نداؤه الأول صاح مرة أخرى:

- يا هوو. . .

وضع كفيين صلبتين فوق حافة القووة واعتمد على ذراعيه القويتين ثم انزلق إلى داخل الخزان. . . كان الظلام شديداً في الداخل حتى إنه لم يستطع أن يرى شيئاً بادية الأمر، وحين نحى جسده بعيداً عن القووة سقطت دائرة ضوء صفراء إلى القاع وأضاءت صدره بملؤه شعر رمادي كث أخذ يلتمع متوهجاً كأنه مطلي بالقصدير. . . انحنى أبو الخيزران ووضع أذنه فوق الشعر الرمادي المبتل: كان الجسد بارداً وصامتاً. مد يده وتحسس طريقته إلى ركن الخزان، كان الجسد الآخر مازال متمسكاً بالعارضة الحديدية. حاول أن يهتدي إلى الرأس فلم يستطع أن يتحسس إلا الكتفين المبتلين ثم تبين الرأس منحدرّاً إلى الصدر، وحين لامست كفه الوجه سقطت في فم مفتوح على وسعه.

أحس أبو الخيزران أنه على وشك أن يختنق، كان جسده قد بدأ

القبر

قاد أبو الخيزران سيارته الكبيرة حين هبط الليل متجهاً إلى خارج
لمدينة النائمة.. كانت الأضواء الشاحبة ترتعش على طول الطريق،
وكان يعرف أن هذه الأعمدة التي تسحب أمام شباك سيارته سوف
تنتهي بعد قليل حينها يغرق في البعد عن المدينة.. وسوف يعم
الظلام.. فالليلة لا قمر فيها، وأطراف الصحراء ستكون صامتة
كالموت.

إنحرف سيارته عن الطريق الأسفلت ومضى يتدرج في طريق رملي
إلى داخل الصحراء. لقد قر قراره منذ الظهيرة على أن يذهب، واحداً
واحداً، في ثلاثة قبور.. أما الآن فإنه يحس بالتعب يتأكله فكان
يراعيه قد حقتنا بمخدر.. لا طاقة له على العمل.. ولن يكون بوسعه
أن يحمل الرفش ساعات طويلة ليحفر ثلاثة قبور.. قبل أن يتجه إلى
سيارته ويخرجها من كاراج الحاج رضا قال في ذات نفسه أنه لن يذهب،
بل سيلقي بالأجساد الثلاثة في الصحراء ويكر عائداً إلى بيته.. الآن،
م تعجبه الفكرة، لا يروقه أن تدوب أجساد الرفاق في الصحراء ثم
يكون نهياً للجوارح والحيوانات.. ثم لا يبقى منها بعد أيام إلا هياكل
بيضاء ملقاة فوق الرمل.

درجت السيارة بصوت هزيل فوق الطريق الرملي، ومضى هو
يفكر.. لم يكن يفكر بالمعنى الصحيح، كانت أشرطة من مشاهد

مقطعة تمر في جبينه بلا أي توقف أو ترابط أو تفسير.. وكان يشعر
بإرهاق مر يتسرب في عظامه كقوافل مستقيمة من النمل.

هبّت نسمة ربيع فحملت إلى أنفه رائحة نتنة.. قال في ذات نفسه:
«هنا تكوم البلدية القمامة» ثم فكر: «لو ألقيت الاحساد هنا لاكتشفت
في الصباح، ولدفنت باشراف الحكومة» دَوَّر مقود سيارته وتنتع آثار
عجلات عديدة حفرت طريقها قبله في الرمل ثم أطفأ فانوسي سيارته
الكبيرين وسار متمهلاً على ضوء الفانوسين الصغيرين، وحين لاحت
أمامه اكوام القمامة سوداء عالية أطفأ الفانوسين الصغيرين.. كانت
الرائحة النتنة قد ملأت الجو حوالياً ولكنه ما لبث أن اعتادها.. ثم
أوقف سيارته وهبط.

وقف أبو الخيزران إلى جانب سيارته لحظات ليتأكد من أن أحداً لا
يشاهده ثم صعد ظهر الخزان: كان بارداً رطباً.. دَوَّر القفل المضلع
ببطء ثم شد القرص الحديدي إلى فوق فترقع بصوت متقطع.. اعتمد
ذراعيه وانزلق إلى الداخل بخفة.. كانت الجثة الأولى باردة صلبة،
ألقي بها فوق كتفيه، أخرج الرأس أولاً من الفوهة ثم رفع الجثة من
الساقين وقذفها إلى فوق وسمع صوتها الكثيف يتدحرج فوق حافة
الخزان ثم صوت ارتطامها المخنوق على الرمل.. لقد لاقى صعوبة جمّة في
فك يدي الجثة الأخرى عن العارضة الحديدية، ثم سحبها من رجليها
إلى الفوهة وقذفها من فوق كتفيه.. مستقيمة متشعبة وسمع صوت
ارتطامها بالأرض.. أما الجثة الثالثة فقد كانت أسهل من أختيها..

قفز إلى الخارج وأغلق الفوهة ببطء، ثم هبط السلم إلى الأرض،
كان الظلام كثيفاً مطبقاً وأحس بالارتياح لأن ذلك سوف يوفر عليه رؤية

الوجه، جر الجثث - واحدة واحدة - من أقدامها وألقاها على رأس الطريق، حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قمامتها كي تيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر.

صعد إلى مقعده ودور المحرك ثم كرر عائداً إلى الورا ببطء محاولاً قدر الإمكان أن يخلط آثار عجلات سيارته بالأثار الأخرى، كان قد اعتزم أن يعود إلى الشارع الرئيسي بذلك الشكل الخلفي حتى يشوش الأثر تماماً. . ولكنه ما لبث أن تنبه إلى أمر ما بعد أن قطع شوطاً فأطفأ محرك سيارته من جديد وعاد يسير إلى حيث ترك الجثث فأخرج النقود من جيوبها، وانتزع ساعة مروان وعاد أدراجه الى السيارة ماشياً على حافتي حذائه.

حين وصل إلى باب السيارة ورفع ساقاً إلى فوق تفجرت فكرة مفاجئة في رأسه. . بقي واقفاً متشجراً في مكانه محاولاً أن يفعل شيئاً، أو يقول شيئاً. . فكر أن يصيح إلا أنه ما لبث ان احس بغباء الفكرة، حاول أن يكمل صعوده الى السيارة إلا أنه لم يشعر بالقوة الكافية ليفعل. . لقد شعر بأن رأسه على وشك أن يتفجر، وصعد كل التعب الذي كان يحسه فجأة، إلى رأسه وأخذ يطن فيه حتى انه احتواه بين كفيه وبدأ يشد شعره ليزيح الفكرة. . ولكنها كانت ما تزال هناك. . كبيرة داوية ضخمة لا تتزعزع ولا تتوارى، التفت إلى الورا حيث ألقى بالجثث، إلا أنه لم ير شيئاً، ولم تجد النظرة تلك إلا بأن أوقدت الفكرة ضراماً فبدأت تشتعل في رأسه. . وفجأة لم يعد بوسعه أن يكبحها داخل رأسه أكثر فأسقط يديه إلى جنبه وحدق في العتمة وسع حدقتيه.

انزلفت الفكرة من رأسه ثم تدحرجت على لسانه:

- لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟

دار حول نفسه دورة ولكنه خشي أن يقع فصعد الدرج إلى مقعده وأسند رأسه فوق المقود:

- لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى:

- لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟ لماذا لم تفرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

انتهت